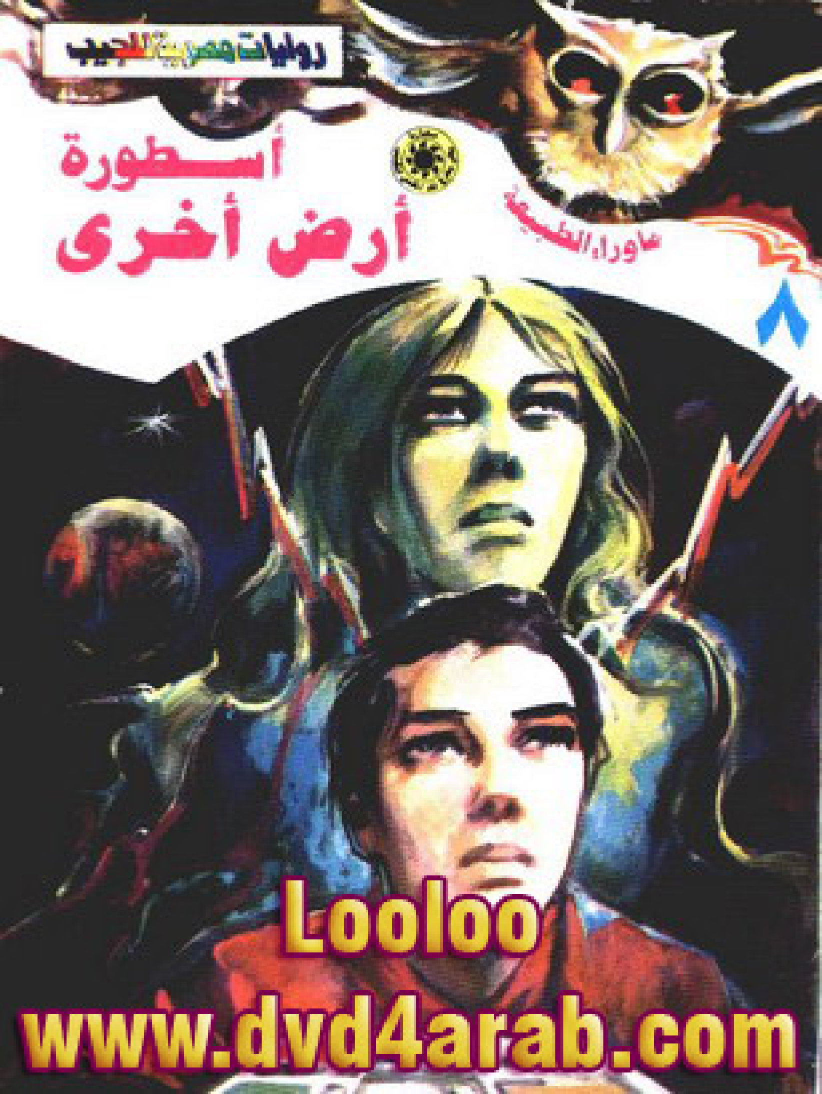

روايات مصرية للجيب
أسطورة
أرض أخرى
ما وراء الطبيعة
٨

ما قبل المقدمة

أنا الدكتور (رفعت إسماعيل)، الذى صدّع رءوسكم بذلك التقرير المختص عن نفسه، فى بداية كل قصة من قصصه التى لا تنتهى ..

على أننى لا أستطيع حقًّا أن أقاوم تلك اللذة الخبيثة فى أن أكرر ما قلته قبلًا : إننى أستاذ أمراض دم سابق .. وشيخ على حدود الأبدية ..

وصائد أشباح غير محترف ـ وبالطبع ـ غير متزوج ..

اليوم ـ وكما عوّدتكم ـ سأحكى لكم قصة أخرى ..

أسمعكم تتساءلون عن المسخ الذى سأقابله هذه المرّة .. هل هو (نوسفيراتو)، أم هو رجل الجليد المفزع، أم (فرانكنشتاين) ؟.. كلّا يا رفاق .. اليوم لن يكون هناك رعب ولا مومياوات ولا حتى مصاصو دماء ...، فقط مغامرة من نوع جديد .. مغامرة لم يكن لى أى دور فيها ولا فضل .. وإنما حكاها لى صديق جديد .. وأوصانى أن أنقلها لكم دون تحريف ..

(سالم محمد شحاته) .. هل تعرفونه ؟.. بالطبع لا ..
إنه رجل عادىّ إلى حدّ لا يُوصف .. رجل تلقاه فى الشقة المجاورة، والمكتب الملاصق لك، وفى الحافلة، وعلى محطة القطار .. لكن هذا الرجل يختلف لأن له سرًا صغيرًا .. سرًا لا يعلمه أحد ولا يتخيله ..

لقد جاء لمكتبى .. وفى خجل شديد ناولنى رزمة من الأوراق مكتوبة بخط يد ردىء .. وأوصانى أن أقرأها وأن أتبنى نشرها إذا ما راقت لى ...

وفى المساء بدأت أدخل عالم المرآة المسحورة .. انغمست تمامًا بين السطور .. ونسيت أن آكل أو أشرب أو أنام .. إن هذا الشاب الذى تقتحمه العين هو ... هو ... كلا .. لن أقولها ...

إنها لقصة غير عادية، وإننى لأوثر أن أنسحب تاركًا لكم المجال كى تعيشوا الأحداث مع (سالم) هذا ... إنها لخبرة جديدة تضاف لرصيد خبراتى ..

ولا يعنينى ما إذا كانت قصته واقعًا أم خيالًا ...
إنها مشوقة .... وهذا يكفينى !!

مقدمة طويلة نوعًا

أول الشهر .. يوم الرواتب فى كل زمان ومكان ..
أدخل من باب الإدارة متعجلًا ممتقع الوجه .. كلما لاقيت موظفًا نظر لى فى هلع وإشفاق، نظرته إلى مجرم يصعد فى سلالم المشنقة .. ثم يقول لى محاولًا أن يبدو طبيعيًا (وهو ما يزيد الأمر سوءًا) :

- (سالم) .. المدير ينتظرك فى المكتب ..

لقد تأخرت - بسبب سهرى المفرط - أكثر من ساعة عن موعد الحضور .. فالويل لى إذن!..

وهناك جوار مكتب الصراف، يقف عدد كبير من الموظفين والفنيين العاملين فى دار النشر التى أعمل بها ..إنهم مجموعة مألوفة، ولابد أنك تعرفهم جميعًا .. كلهم ينتظرون رواتبهم ..

(نور الدين) و (سلوى) يتهامسان مع ابنتهما (نشوى) .. بينما بعض وحوش المشترى وعطارد العاملة فى سلسلة (نوفا) تزأر بشكل مفزع ..

رجل المستحيل ـ (أدهم صبرى) ـ واقف يتبادل عبارات غاضبة مع (دونا كارولينا) .. وما إن رآنى حتى أشرق وجهه الوسيم وهتف :

ـ كيف حالك يا (سالم) ؟.. المدير ينتظرك ..!

ثم داعب خصلات الشعر الأشيب على فوديـه .. وهمس :

ـ إنه ينوى خراب بيتك !..

وفى هذه اللحظة صرخ رجل أخضر فى عصبية :

ـ أيها الأرضيون القذورن .. أنا الأرشيدوق (شاسا) قائد أسطول الفضاء المريخى، آمركم بأن تفسحوا لى الطريق .. أريد راتبى !..

انفعل (نور الدين) ومدّ يده لمسدس الليزر صائحًا :

ـ ولماذا لاتنتظـر دورك مثلنـا أيهـا المريخـى المتعجرف ؟!

مدّ الأرشيدوق (شاسا) يده إلى سيف الليزر .. ولوح به لامعًا مرعبًا فى وجوهنا .. وصاح :

ـ تعال ذق هذا مادمت شجاعًا !..

وبدأت الأعصاب تتوتر .. وأيقنت أن مذبحة ستحدث هنا، خاصة وأن وحوش المشترى الهلامية بدأت تتوتر وتتحفز للقتال .. وحين تثور هذه لن تعرف أبدًا مع من وضد من تقاتل .. إنها تلتهم كل شىء، حليفـًا كان أو عدوًا .. مكتبًا كان أو مطفأة سجائر ..

وهنا برز رأس المدير من باب غرفته، وصاح فى حزم :

ـ ما هذه الضوضاء ؟.. لا أريد غوغاء ها هنا !

وعلى الفور ساد الصمت وهدأت النفوس، كأنما بعصا ساحر .. فالواقع أن كل هؤلاء ـ حتى وحوش المشترى ـ يرغبون فى قبض رواتبهم !.. وليس منهم من يتحمل تلقى خطاب الإقالة أو الخصم ..

ـ وأنت يا (شاسا) و (نور الدين) .. أعيدا أسلحة الليزر ولا تنسيا أنها عُهدة، وأن من يفسد شيئًا يدفع ثمنه !..

هزّ الأرشيدوق (شاسا) رأسه فى ذلة، وأعاد سيف الليزر إلى غمده .. فمرتبه لمدة عشرين سنة لن يكفى لشراء سيف ليزر آخر ..!

وهنا حدثت الكارثة ..

التفت لى المدير .. وقال فى هدوء :

ـ وأنت .. تعال !!

أفسح لى الواقفون الطريـق، وعيونهـم تنطـق بالحسرة .. لسان حالهم يقول : تشجع أيها البائس ..

دخلت المكتب فى صمت، على حين استرخى المدير على كرسيه .. وعقد يديه فوق صدره وتنهد .. ثم قال :

ـ حسن ..!

ابتسمت فى حرج مقاومًا رغبة جامحة فى الفرار .. فواصل الكلام :

- والآن هو ذا (سالم شحاتة) الكاتب الشاب الذى يعمل معى منذ عام .. ويأخذ راتبًا مجزيًا .. من أجل ماذا ؟

وأخرج كراستين من درج المكتب ألقاهما أمامى قائلًا :

- القصة الأولى تدور حول رجل يخترع آلة زمن، يرحل بها إلى الماضى والمستقبل، حيث البشر منقسمون إلى طبقتين : طبقة كادحة تعمل تحت الأرض، وطبقة مترفة تعمل فوق الأرض .. هل هذه فكرتك ؟

قلت فى فخر :

- طبعًا .

هزّ رأسه فى قنوط، قائلًا :

- حسن .. هناك كاتب إنجليزى اسمه (هربرت جورج ويلز) يزعم أنه هو مؤلف القصة الأصلى ..

صحت فى عصبية وقد صعد الدم إلى رأسى :

- لصّ !.. إنه لصّ !.. لقد سرق فكرتى الرائعة !.. سأقاضيه !

قال فى برود :

- إنه كتبها قبلك بأكثر من مائة عام ..!

- ..... !

ومدّ يده إلى الكراسة الثانية وشرع يقرأ :

- القصة الثانية تتحدث عن رجل يبيع رأسه مقابل الثراء والمجد الفنى .. ألا تجد أنها نسخة طبق الأصل من قصة (الرجل الذى باع رأسه) لأديبنا العظيم د . (يوسف عز الدين عيسى) ؟!

وأشعل سيجارًا بقداحته .. واستطرد :

- هكذا ترى يا أخ (سالم) أن الموقف يعكس ثلاثة أشياء .. أولًا أنك غبى إذ تفترض أن أحدًا لايعرف هذه الأعمال سواك .. ثانيًا أنك لص قصص محترف .. ثالثًا إذا افترضنا أنك لم تسرق هذه القصص، فأنت ساحر حقيقى ..

وأشار لى بالسيجار :

- وأنا لا أحب أن أعيّن الأغبياء أو اللصوص أو السحرة فى مكتبى ..! ، وبعد كل هذا ...

واحتقن وجهه :

- بعد كل هذا ....

وضرب المكتب بقبضته :

- بعد كل هذا ، تجىء متأخرًا ساعة كاملة عن العمل ؟!

ابتلعت ريقى بصوت مسموع، ونظرت لحذائى .. ثم قلت :

- سيدى .. إن لدى أفكارًا أكثر أصالة .. فقط أعطنى الفرصة كى .. أنت تفهمنى ...

نظر لساعته فى سأم .. وغمغم :

- أعطيك ثلاث دقائق لتقول ما عندك .

قلت متلعثمًا محاولًا ترتيب أفكارى :

- عندى فكرة عن رجل له شخصيتان، إحداهما خارقة للعادة، والأخرى ضعيفة خجول .

- وحبيبته تنفر من الخجول وتحب الخارقة .. مثل (سوبرمان) !.. الصحفى (كلارك كنت) .. هه ؟..

مسحت قطرات العرق على جبينى .. وقلت :

- فكرة أخرى عن مخلوق فضائى يعيش على الأرض، ويتعرف حياة البشر، ويأمل فى العودة لموطنه .

- (إى - تى) ..!.. الفيلم السينمائى الذى شاهده الجميع سواك، أو هذا ماستحاول إقناعى به .

- إذن فكرة عن إدارة ما، بها مجموعة من الشباب، يحققون فى القضايا الغامضة .. و ..

- لقد قُتلت هذه الفكرة .. هناك ألف قصة عن ألف إدارة بها ألف شاب من هذا النوع .. انتهت الدقائق الثلاث !

ورفع سماعة التليفون، وبدأ يطلب رقمًا ما .. وهو يغمغم :

- الحقيقة يا (سالم)، هى أنك كسول وعاجز وغير موهوب .. و ...

آلو ؟.. (مصطفى) ؟.. نعم .. كيف حالك ؟.. أرجو أن ترسل لى ملف (سالم شحاتة) حالًا ..!

صحت فى جزع :

- المشكلة أن القدماء قد فكروا فى كل شىء .. لقد سافروا فى قصصهم لكواكب أخرى، وغاصوا تحت الأرض وفى الأعماق .. عادوا للماضى وزاروا المستقبل .. لقد سلبونى كل شىء ..، المشكلة أننى جئت الدنيا متأخرًا بعد أن أتوا على مائدة الأفكار، فلم يبق لى سوى الفتات .

قلب كفه بمعنى أنه لايستطيع مساعدتى .. ثم قال برزانة :

- مهما كان رأيك .. دعنى أصارحك بشىء .. لو لم تأتنى بفكرة جديدة خلال ثمان وأربعين ساعة، ستجد نفسك فى مغامرة حقيقية .

- حقًا ؟.. شكرًا يا سيدى .. وما هى ؟

- .. مغامرة البحث عن طعام ..!!

وهكذا .. خرجت من مكتبه ورأسي يئز كخلية النحل، بصعوبة أتبين الوجوه من حولى .. (أدهم صبرى) يقول باسمًا :

ـ أعتقد أنك كنت موفقًا .. فلا توجد آثار دماء على ثيابك ..!

ويقول لى د . (رفعت إسماعيل) وهو ينظف نظارته :

ـ تشجع !.. لقد واجهت مواقف أشنع من هذه فى شبابى !..

أما أنا فلم أكن أعى حرفًا ..

★ ★ ★

١ ـ نسختى ..!

فكرة جديدة ..!.. فكرة جديدة ..!

عبثًا استعرضت مئات الأفكار الصالحة، لتبدأ سلسلة مشوقة دون جدوى .. حين تخطر لك فكرة رحلة فى عالم القصص الخرافية، تكتشف أن كاتبًا اسمه (لويس كارول) سبقك إليها، وكتب (أليس فى بلاد العجائب)، وحين تفكر فى كتابة قصة عن رحلة إلى قبائل مجهولة، بحثًا عن كنوز ما .. تدرك أن الأخ (رايدار هجارد) سبقك إليها، حين كتب (كنوز الملك سليمان) ..

لا جدوى ..

الباب يدق .. ويدخل (سيد) عامل المكتب، يبلغنى برسالة عجيبة :

ـ أختك تنتظرك بالخارج .

ـ همم !.. وهل قالت إنها أختى ؟..

ـ كلا .. لكنها تشبهك بشدة ..

ـ هكذا .. الواقع أنه ليس لى أخوات ولا إخوة !..



ودعوتها للجلوس .. فجلست برشاقة ، وابتسمت .. حتى الابتسامة كانت بزاوية فمها اليسرى مثل ابتسامتى ! ..

ثم تنحنحت .. وسألته :

ـ هل هى جميلة ؟

ـ قلت إنها تشبهك بشدة !!

بحثت عن رد لاذع لإهانته فلم أجد .. طلبت منه أن يدعها تدخل، وبعد ثوان دلفت من الباب فتاة ترتدى ثيابًا بسيطة جدًا .. والعجيب حقًا أنها كانت تحمل ذات ملامحى .. مع مسحة من الرقة الأنثوية طبعًا، وإلا بدت مثل (فرانكنشتاين)، وكانت أكبر سنًا منى بحوالى عقد كامل ..

ـ أستاذ (سالم) ؟

ـ أنا هو ..

ودعوتها للجلوس .. فجلست برشاقة ، وابتسمت .. حتى الابتسامة كانت بزاوية فمها اليسرى مثل ابتسامتى !..

ـ نهارك حليب ..!

تجاهلت تعبيرها الغريب ، الذى يعطى لمسة سوقية ما لامبرر لها ، وفى رزانة سألت :

ـ أفندم .. هل ثمة خدمة أسديها إليك ؟!..

قالت وهى تعبث فى شرود ذهن بالأوراق على مكتبى :

ـ لا أدرى .. لايوجد شىء ما أريده منك .. لكنى ..

وفكرت برهة .. ثم همست :

ـ .. لا أعرف مخلوقًا ولا مكانًا فى هذا العالم سواك ..
أنت ملاذى الوحيد .. هل تفهمنى ؟!..

آه ..!.. إذن القصة هى هكذا .. هذه الفتاة منبهرة بك يا أخ (سالم) .. ومن العجيب أنها لا تبدو راقية الذوق إلى هذا الحد .. إنها ليست سامية مرهفة الحس فحسب .. بل هى ـ ولابد ـ عبقرية أيضًا ..!

هززت رأسى فى حكمة، بمعنى أننى أفهم تمامًا ما تريد قوله .. فاستطردت :

ـ إنك تحتاج إلىّ هذه الأيام بالذات؛ لأنك ستطرد من العمل بعد أسبوع، ما لم تجد فكرة جيدة ..!

نهضت كالملسوع .. وسألتها :

ـ من قال هذا ؟

ـ لأننى أنا نفسى طردت فى نفس التاريخ، منذ عشر سنوات !

هذه الفتاة تهذى، أو أن وراءها سرًا لا أعلمه .. ما علاقة طردها بطردى ؟.. سألتها فى ريبة :

ـ هل تعنين أنك كنت تعملين هنا منذ عشر سنوات ؟

قالت فى هدوء مستفز :

ـ كلا .. كنت أعمل هنا ولكن فى عالمى ..!

ـ آه ..!.. هكذا فهمت !

واسترخيت فى مقعدى، لاعنًا يوم أتيت للدنيا، كى أتلقى توبيخ المدير، وأصغى لهذيان الفتيات المعتوهات .. كانت عيناها تتأملان الصور الملونة للقطط الصغيرة المبعثرة تحت زجاج مكتبى .. وابتسمت فى انتصار :

ـ آه !.. أنت تحب القطط الصغيرة ؟

ـ لم أعرف أن القانون قد حرّم ذلك .

اتسعت عيناها .. وقالت فى حماس :

ـ مثلى تمامًا .. وطبعًا تحب موسيقا (فيروز)، وتحب النوم حتى ساعة متأخرة، وقراءة الجريدة فى الحمام ؟!..

ملت نحوها برأسى فى ذهول .. موضوع الجريدة هذا .. هناك شىء غامض يحيط بهذه الفتاة .. شعور غريب يتملكنى ..

ـ وكذلك أنت جاف القريحة وعاجز عن الإبداع .. أليس كذلك ؟

ـ لحظة يا آنسة .. لو كنت قد جئت لإهانتى ..

ـ كذلك أنت تحب الأكل المتبّل .. وتفرط فى شرب القهوة .. وعندك قرحة معدية مزمنة .

ـ .... !

كنت هنا قد وصلت لمرحلة انعدام الوزن .. هذه الفتاة تعرف أدق خصوصياتى .. وتشبهنى إلى حدّ مرعب .. ولها عاداتى .. و...

قالت وهى تلمح آثار الغباء على وجهى ،

- ألم تفهم بعد ؟..

- نعم .. نعم لا أفهم ..

- أنا هى أنت أيها الأحمق !

★ ★ ★

كنا جالسين أنا وهى فى ذلك المطعم الرخيص، نتحدث عن ذلك الذى بدا لى كابوسًا غريبًا .. كانت تزدرد الطعام بشراهة (كعادتى)، وتقول :

- .. هأنذى قد حكيت لك كل شىء عنك .. فأى إثبات تريد بعد ذلك ؟

قلت لها فى صبر، وأنا عاقد أناملى تحت ذقنى، وقد أفقدتنى كلماتها شهيتى إلى الأبد :

- دعينى أفهم مرة أخرى .. تقولين إنك من كوكب آخر .. أليس كذلك ؟

- بلى .. كوكب (٤١٩ - أ) .. مجرة (تازما مالورى) ..

- وأن هذا الكوكب يشبه الأرض فى كل شىء، فيما عدا اختلافات طفيفة ..

- .. لقد فهمتنى ..

- .. وأنك أنت صورتى الكروموسومية على كوكبكم .. يعنى أننى على كوكبكم أنثى، وعلى الأرض ذكر .. ولهذا اسمى (سالم) واسمك (سلمى) ..

- إنك فهمت كل ما قلته ..

- .. وتتوقعين منى أن أصدق كل هذا ..!

- هذا شأنك ..

- وكيف تأتى أنك تعرفين ما سيحدث لى ؟.. هل التنبؤ بالمستقبل متاح لسكان كوكبكم ؟

قالت وهى ترشف كوب الماء بعد الأكل (كعادتى) :

- كلا .. لا يستطيع بشر أن يتنبأ بالمستقبل .. كل ما هنالك أننا نسبقكم بسنوات عشر .. أى أننا فى عام ٢٠٠٣ الميلادى على كوكبى .. وهكذا فإن أكثر ما سيحدث لك فيما بعد، مرّ بى أنا .. لقد طردت من عملى فى مثل هذه الأيام منذ عشر سنوات ..!

- وطبعًا لم تموتى جوعًا ..

- دنوت من ذلك كثيرًا !

- وماذا فعلت بعد طردك ؟..

تنهدت فى تعب وقالت :

- التحقت بهيئة بحوث كبرى، وبدأت أدرس الإلكترونيات، وصرت باحثة لا بأس بها .. أطلب لنا القهوة أرجوك، فأنا مدمنة قهوة ..

طلبت لها ما أرادت .. ثم قلت :

ـ لا أعتقد أن عقلى سيستوعب الإلكترونيات ولو بعد قرنين ..

ـ كان هذا هو مصيرى، وربما أن مصيرك يختلف .. ثمة العديد من الاختلافات كما قلت لك ..

ـ وكيف وصلت إلىّ ؟

ـ حين وصلت لهذا الكوكب، وجدت نفسى قريبة من مكان عملى القديم، لهذا ذهبت هناك بحثًا عن (نسختى) الكرموسومية .. قال لى العامل إن هناك موظفًا فاشلا اسمه (سالم) .. لم أحتاج لعبقرية خاصة كى أعرف من هو (سالم) هذا ..

ما إن أنهت كلامها حتى طلبت منها النهوض ..

ـ إلى أين ؟

ـ ستعرفين فيما بعد ..

ـ والقهوة ؟..

ـ ششش ..!

★ ★ ★

إلى صديقى القديم فى مصلحة الطب الشرعى ـ د. (عدنان) ـ ذهبنا، وكان على وشك الانصراف حين طلبت منه خدمة استثنائية .

طلبت منه أن يأخذ بصماتى وبصماتها، وقطرة من دمى وقطرة من دمها، ليرى مدى تطابقهما..

لم يفهم ما أريد، لكنى كنت لحوحًا مما جعله يقتنع .. أو لعله ظن أننى والفتاة مقبلان على الزواج، ونبغى نوعًا من (الاستشارة الوراثية) ..

وفى الشارع وقفت والفتاة حائرين .. ثمة مشكلة بسيطة لكنها بلا حل .. أين تمضى الفتاة ليلتها ؟.. إننى أحيا وحدى، فليس من الملائم أن أستضيف فتاة حتى ولو كانت من الكوكب (٤١٩ـا) .. مجرة (تازما مالورى) !

وبرغم غيظى منها، وشكى فى أمرها، إلا أن نظرة الحيرة والرعب الصادقة فى عينيها، جعلتنى أقرر أنها مسئوليتى برغم كل شىء ..

وهكذا أخذتها إلى حيث أسكن ..

ـ ألم تتعرفى على البناية ؟

ـ نعم .. فى كوكبى أعيش فى دار سكنى الباحثات بهيئة (الإلكترونات التكنولوجية) ..

صعدنا الدرج إلى شقة جارتى مدام (عواطف) ...، فتحت لى السيدة الطيبة الباب، فأشرق وجهها حين رأت من حسبتها شقيقتى ..!

ـ ليست شقيقتى بل ابنة خالتى ..

ـ سبحان الله .. تكاد تكون نسخة منك !

ـ حسن .. لقد وصلت ابنة خالتى للقاهرة اليوم، فى زيارة لصديقة لها .. فلم تجدها .. ولما كان الوقت متأخرًا ..

ـ طبعًا .. طبعًا .. ستنام الليلة مع (هدى) ابنتى .. لا تقلق عليها ..

وقبل أن تدخل (سلمى) الباب همست فى أذنها :

ـ ولا كلمة عن مجرة (تازما مالون) هذه ..

قالت مصححة فى كبرياء .

ـ (تازما مالورى) ..

ـ حسن .. حسن .. ولا كلمة، وإلا وجدت نفسك فى مكان يضم زملاءك من القادمين من مجرات أخرى ..!

وما إن دخلت حتى هززتُ رأسى محييًا السيدة الفاضلة، وصعدت لشقتى كى أغفو بضع ساعات أنسى فيها كل هذا ..

* * *

فى الحادية عشرة مساءً، أخذ جرس الهاتف يدق فى غرفتى، فى هستيريا ولهفة ..

رفعت سماعة الهاتف، لأسمع صوت د. (عدنان) الملهوف المذهول :

ـ (سالم) .. هل حدث خلط بين عينتك، وعينة الفتاة .. أو تكرار مثلًا ؟

ـ أولًا .. مساء الخير .. ثانيًا لم يحدث .. لقد تم الأمر بمعرفتك ..

ـ إذن ثمة معجزة فى الأمر .. إن البصمتين تتطابقان تمامًا .. أول بصمتين تتطابقان فى تاريخ الطب الشرعى كله، والأدهى أن كروموسومات الدم متماثلة تمامًا ..، فقط عينة بها جسيم (بار) بمعنى أنها عينة أنثى .. لقد أصابنى الذهول، فطلبت إجراء اختبار توافق الأنسجة، على ما نسميه (المستضد البشرى للخلايا البيضاء) .. هل عندك فكرة عن الموضوع ؟

ـ بتاتًا .. اعتبر أنك تحدث حمارًا ..

ـ حسن .. هذا أنسب .. بدون تفاصيل يوجد تطابق نسيجى بنسبة ١٠٠٪ بين العينتين .

ـ ومعنى هذا ؟..

قال وقد اكتسب صوته رنينًا مرعبًا :

ـ معناه أنك ـ أنت وتلك الفتاة ـ شخص واحد !!

* * *

٢ ـ أرض أخـــرى ..

فى الصباح وجدتها واقفة أسفل سلم العمارة، تنتظرنى مشرقة الوجه، وقد عقصت شعرها، فبدت كطفلة تنتظر أباها للذهاب للمدرسة ..، وكنت أنا منتفخ الوجه عكر المزاج، بسبب الأرق طيلة الليل ..

ـ نهارك حليب ..!

ـ ما هذه الكلمة ؟.. لماذا لا تقولين (صباح الخير) كالآخرين ؟

ـ فى كوكبى لانقول سوى (نهارك حليب) ..

ـ كلمة مستفزة حقًا ..

وركبنا الحافلة .. واضح أن الحافلات فى كوكبها مزدحمة مثل حافلاتنا، لأنها لم تبدُ مندهشة .. وحين مرّ المحصل، مدت يدها إلى حقيبتها لتدفع لنا، لولا أن أوقفتها نظرة حازمة من عينىّ .. ودفعت له أنا .. كانت توشك أن تعطيه ورقة من عملاتهم، زرقاء اللون، عليها نصب تذكارى عجيب !!..

همست فى أذنى وقد فهمت ما هنالك :

ـ معذرة .. دائما ما أنسى أن العملات غير واحدة فى كوكبينا .

مضت الحافلة تتمايل وتهدر، حتى وصلت إلى وجهتنا حديقة الحيوان !.. نعم .. فأنا لاأستطيع تركها عند جارتى، ولا أخذها للعمل، لذا قررت أن آخذها لمكان يمكننا الكلام فيه دون رقباء .. ثم إننى سأطرد ـ كما تقول هى ـ بعد أسبوع، فلا ضير من يوم نقضيه فى مرح، أنا الذى لم أر حديقة الحيوان منذ خمسة عشر عامًا ..

وهنالك جلسنا نطعم الدببة بالفول السودانى، ونتحدث ..

قلت لها وأنا ألتهم بعض الفول :

ـ على فكرة ..

ـ همم ؟

ـ اتصل بى د. (عدنان) أمس، وأكد لى ما قلته .

ـ وهل شككت لحظة ؟

ـ ضعى نفسك مكانى !

بدأت تحكى لى قصة حياتها، وهى تشابه قصة حياتى من وجوه عديدة .. سألتها عن سبب اختلاف جنسينا، فقالت إن تشابه الكوكبين لايمكن أن يكون مطلقًا .. إن الأمر كله يتوقف على كروموسوم الذكورة (واى)، إذا وصل البويضة أولًا جئت أنا ذكرًا، وإذا وصل الكروموسوم (إكس) أولًا جئت أنا أنثى ..



لذا قررت أن آخذها لمكان يمكننا الكلام فيه دون رقباء ...

ـ وكيف خطر لأبوينا أن يسميانا نفس الأسماء .. (سالم) .. (سلمى) ؟

ـ قد تكون صدفة ، وقد لا تكون ... لماذا يختار الأبوان اسمًا ما ؟.. إنه خلاصة تجاربهما وبيئتهما وثقافتهما .. فإذا تساوت هذه المعايير على كوكبك وعلى كوكبى ، فإن هناك احتمالًا لابأس به ، أن يختار كلا الأبوين نفس الاسم ..

هززت رأسى .. وناديت بائع الجرائد ، واشتريت منه جرائد اليوم .. فسمعتها تبدى دهشتها من أن عناوين الجرائد مختلفة البنط واللون عن جرائد كوكبها ، وشرعت تمرر إصبعها على الأخبار فى شغف ..

ثم التفتت إلىّ وقالت إن معها فى حقيبتها جريدة من عالمها .. فلماذا لا أتصفحها على حين تتصفح هى جريدتنا ؟.. أخرجت من الحقيبة جريدة عجيبة اسمها (المجد) تاريخها ١٤ محرم سنة ١٤٢٣ ..... أرجو ألا يرانى أحد وأنا أقرؤها ..

أخبار غريبة جدًا ..

«أسطول (أ.ع.م) يجرى مناورات فى المحيط الأطلسى ..

(تايلاند) تعزز قواتها فى الصين المحتلة ..

بركان (الإسكندرية) يجدد ثوراته ..
جمهورية (كاليفورنيا) تشكو فى مجلس الأمن الأعمال العدوانية التى تمارسها جمهورية (فرجينيا) ..
هبوط فى بورصة الولايات الأمريكية الجنوبية المتحدة .. » .

أصابنى الدوار والذهول من كل هذا الخلط .. وكانت (سلمى) فى حال أسوأ .. قلت لها مبتلعا ريقى :

ـ ما معنى هذا الهراء ؟.. (تايلاند) تحتل (الصين) ؟ بركان فى (الإسكندرية) ؟

ـ وهو السخف ؟.. لا توجد عندكم (أ.ع.م) ؟

ـ وما هى ؟.. إلامَ ترمز هذه الحروف ؟

ـ .. (أمة عربية متحدة) .. فى كوكبى اتحدت الدول العربية منذ منتى عام، مكونة وحدة كونفيدرالية هائلة .. قوة اقتصادية وطاقة بشرية وتقدم تكنولوجى لا يستهان به ... إن أساطيلنا الجوية والبحرية تسيطر على نصف العالم ..

ـ والقوة الأخرى ؟

ـ هى اتحاد جنوب شرق آسيا (نادى النمور) ...، ثم هناك قوة أخرى هى (الولايات المتحدة الأمريكية الجنوبية) وهى تثير الهلع فى قلوب جاراتها الضعيفات، مثل جمهورية (أوهايو) ومملكة (بنسلفانيا) وسواها ..!

أخفيت ضحكتى الهستيرية المريرة، على الصورة الكاريكاتورية التى ترسمها لى، وسألتها بجدية :

ـ وعاصمتكم ؟.. هل هى (القاهرة) ؟

ـ فى (أ.ع.م) توجد ثلاث عواصم .. (دمشق) .. (القاهرة) .. (الرباط) .. تدير كل واحدة شئون الولايات المحيطة بها مع التنسيق التام ..

سألتها وأنا أشعر أن أحدنا مخبول :

ـ وكيف، ولماذا جئت عالمنا ..؟

قالت وهى تهز حذاءها بعصبية :

ـ د . (محمود بكر)، وهو عالم فيزياء فى كوكبى، توصل إلى اختراع جهاز اسمه (ناقل الجزيئات) .

ـ (تيليترانسبورتر) ؟.. أليس هذا ما تعنين ؟

قالت فى كبرياء :

ـ لماذا تستخدم مصطلحًا لاتينيًا ؟.. قلت لك إن مخترعه عربى ..

ـ معذرة .. فكل قصص الخيال العلمى عندنا تستعمل هذا المصطلح ..

قالت :

ـ يقوم هذا الجهاز بتحويل جزيئات الجسم إلى طاقة يتم إرسالها بسرعة تفوق سرعة الضوء ، إلى أى مكان ، لتعود لحالتها هناك ... وهذا هو الحل الوحيد والممكن لارتياد المجرات الأخرى بالنسبة لكائنات فانية مثلنا ... ، أبدًا لن توجد سفينة فضاء قادرة على هذه المهمة .. لكن هناك مشكلة .. يجب أن يشابه الجو الأيونى للكوكب (المستقبل) ، نفس الجو الأيونى للكوكب (المرسل) ، حتى نضمن ألا يتغير شكل الجزيئات بعد الرحلة المريعة ..

ـ فهمت .. لا تريدون المخاطرة بإرسال إنسان إلى مجرة أخرى ، يتحول عند الوصول إليها إلى دستة من مشابك الغسيل ..!

ـ بالفعل .. لكن الكون كبير .. وهناك مئات المجرات تشبه مجرتنا ، بها عشرات الشموس التى تشبه شمسنا ، حولها عشرات الكواكب التى لابد أن أحدها قد مرّ بنفس ظروف كوكبنا .. وبالتالى ..

قاطعتها فى حماس وقد اقشعرّ جلدى رهبة :

ـ هناك عشرات الألوف من أرضكم .. أحدها هى أرضنا هذه !

ـ وهكذا فإنه يمكن إرسال الواحد منا ـ دون أدنى مخاطرة ـ إلى أرض موازية ... ولما كانت قد مرّت بنفس الظروف ،

فإن هناك احتمالًا لا بأس به أن تقابل نفس الوجوه .. وتسمع ذات الأسماء .. ونفس اللغات .. لكن هناك اختلافات عديدة كما فى حالتنا هذه ..

ـ مثير !!

ـ الأكثر إثارة هو أن الكواكب المتماثلة فى الظروف ليس لها نفس العمر .. فكما قلت لك هناك أرض تسبقكم بعشر سنوات هى أرضى .. هناك أرض أخرى لم تزل فى عصر الرومان .. وأرض فى عصر العباسيين .. وأرض فى العصر الباليوزى .. كل شىء ممكن ..

ـ مثل آلة الزمن .

ـ كلا .. ليس هذا هو مفهوم آلة الزمن .. قد تجد ماضيًا يختلف تمامًا عن أى ماض طالعته فى كتب التاريخ ..

ـ وهل (سأقابلنى) دائمًا فى كل كوكب من هذه ؟

ـ ليس بالضرورة .. قد لا تكون وُلدت بعد .. وقد تكون مُتّ من زمن ... وقد يكون جدك توفى قبل أن ينجب أباك ... قد تجد نفسك رضيعًا ، أو عجوزًا ، أو ممثلة سينما حسناء ، أو ديكتاتورًا ..

شردت نظرتى وهمست :

ـ إن .. إن هذا يثير الدوار ..

تلفتت حولها فى حذر ، ثم مدت يدها لحقيبتها وأخرجت آلة صغيرة تشبه الآلة الحاسبة ..

- هذا هو .

تأملت الجهاز فى خيبة أمل :

- فقط هذا ؟.. إن أفلام الخيال العلمى تظهر (التيليترانسبورتر) دائمًا فى صورة كابينة تليفونات .. لهذا ارتبطت فى ذهنى بهذا الشكل، مثلما ارتبطت آلة الزمن - للأبد - بمنظر كرسى الحلاق ..

قالت دون أن تعلق على دعابتى :

- كانوا يريدون متطوعين.. وكانت هذه هى فرصتى للهرب من واقعى، أردت أرضًا أخرى لاتعرفنى ... لقد أعطانى د . (محمود) برنامجًا يناسب حوالى ألف كوكب .. لكن كل كوكب أزوره يعنى انتهاء فرصتى فى العودة إليه لأن دائرته تحترق ..

وأشارت إلى الأرقام :

- يأخذ الكوكب رقمًا من واحد إلى ٤١٩ .. ثم المجرة تأخذ حرفًا من أ إلى ياء .. بعد هذا رقم المدار .. إن الأرض - كوكبكم - هى أول محاولة لى ورقمها هو (١١٢ ب - ٧٥)... لن أستطيع العودة لهذا الرقم لو تركت هذه الأرض ..

- وكيف عرف د . (محمود) أماكن هذه الكواكب الشبيهة ؟

- .. بالحاسوب .

- تعنين (الكومبيوتر) ..؟

- كلا .. إنه اختراع عربى فى عالمى ، ولم يكن ثمة داع لتسميته باسم أعجمى ..!! باستخدام الحاسوب وقوانين الاحتمالات، ونوع متقدم جدًا من (جبر المحددات)، توصل لحساب أماكن هذه الكواكب بدقة ..

ثم أشارت إلى زرّ أحمر صغير :

- هذا هو زرّ العودة .. تلقائيًا يطلب رقم مجرتى (٤١٩-أ-٣) حيث أعود وأقدم تقريرى يومًا ما .. إنه تذكرة العودة لى .. ووضعت الجهاز جانبًا وعادت تطالع الجريدة ..

ألم أقل لكم إنها نسخة منى فى كل شىء حتى الإهمال !؟.. قبل أن ندرك ما حدث وثب أحدهم على الحقيبة - والجهاز بها - وانتزعها وشرع يركض ..

إنه لص أغراه منظر الجهاز فظنه شيئًا ثمينًا غير عالم - الغبى - أنه لن يجد مشتريًا لجهاز (ناقل جزيئات) مهما حاول ..!

صرخت (سلمى) فى هلع :

- (سالم) !.. لو ضاع الجهاز أو ضغط على الزرّ الأحمر سيذهب هو لعالمى وأبقى أنا هنا للأبد ..!

* * *



قبل أن ندرك ما حدث وثب أحدهم على الحقيبة ــ والجهاز بها ــ وانتزعها وشرع يركض ..

٣ ـ سجينة !

بعد عودتنا من المخفر حيث أبلغنا عن سرقة الحقيبة التى تحوى بعض المال و ... آلة ترجمة متطورة ؛ كانت (سلمى) فى حال سيئة للغاية ، ولم تنبس ببنت شفة طيلة الطريق .. لقد غدت حبيسة عالمنا للأبد .. وبرغم تشابه الكوكبين فإننى أفهم شعورها تمامًا ..

أما ما كان يقلقنى حقًا فهو ذلك الاحتمال الضعيف .. لو عثروا على الحقيبة ، وفتحوها .. فما هو تفسيرى للعملات النقدية الغريبة ، والجهاز المريب الموجود بها ؟!..

قالت (سلمى) فى غلّ من بين أسنانها :

ـ هأنذى حبيسة كوكبك اللعين .. أبدًا لن أرى أرضى ، ولا صديقاتى ولا شارعى .. أبدًا لن أرى أرضنا سوى هذه .. والأسوأ هو أن أرضكم هذه غير صالحة للحياة أساسًا ..!

قلت لها معتذرًا بلا مبرر :

ـ آسف على أن كوكبى لا يناسبك .. لكن هناك احتمالاً لا بأس به أن يجد رجال الشرطة حقيبتك .

ركلت قطعة حجر على الأسفلت فى عصبية ، حتى كادت تهشم أصابع قدميها .. وهتفت :

ـ وحتى ذلك الحين .. ماذا أفعل ؟.. وأين أنام ؟..

ـ من ناحية النوم لن تكون هناك مشكلة .. يمكنك أن تعودى للنوم عند جارتى ..

ـ وأنام مع ابنتها السخيفة المملة ، التى تثرثر وتطوى نفسها حتى الثانية صباحًا ..؟

ـ طبعًا .. لايوجد حل آخر .. المهم أن تقبل هى ..!

ـ اللعنة ..

فكرت حينًا ، ثم واتتنى فكرة ما ..

ـ (سلمى) .. هل أنت متزوجة ؟

ـ لا .. أنا عانس إذا كنتم تستعملون هذا اللفظ هنا ..

ـ ... نتزوج إذن ..!..

اتسعت عيناها فى ذهول ، فأخذت أبتسم فى بلاهة .. لم لا ..؟.. سيكون هذا هو المخرج الوحيد لها على هذا الكوكب .. ثم تلك التجربة المثيرة أن يتزوج الرجل نسخته الأنثوية ..!، مهما توافقت طباع الزوجين فلابد من الاختلاف فالخلاف .. أما فى هذه الحالة ـ حين يتزوج الرجل نسخة كربونية منه ـ فلن تحدث مشاكل .. مستحيل أن تحدث مشاكل .. امرأة تفكر مثلى ، وتحلم مثلى ..

دعك ـ بالطبع ـ من الفكرة النرجسية العتيدة لدى كل رجل .. لو أنه وجد زوجة تشبهه فى كل شىء فلربما كانت أقل مللًا وإزعاجًا .!

صارحتها بخواطرى .. فقالت بعد تفكير :

ـ لحظة يا (سالم) .. أنت تخلط ما بين (تشابه) الطباع و (تآلف) الطباع ..

ـ لا أفهم ..

ـ أردت أو لم ترد أنا أكبر منك سنًا وأكثر حكمة ..، دعنى أقل لك إن (تشابه) الطباع لايخلق زيجة ناجحة .. (تآلفها) هو الذى يفعل ذلك ..

ـ لا أفهم ..

ـ حسن .. عندنا فيلسوف لاأدرى إن كان عندكم مثله أم لا(*) .. يقول هذا الفيلسوف إن الزواج الأمثل ، هو الذى يتم بين رجل لايحب صدر الدجاجة ، وامرأة لاتحب سوى صدر الدجاجة .. هل تفهمنى ؟.. لو أن كِلا الزوجين يحبان صدر الدجاجة لغدت حياتهما جحيمًا ..

ـ أنا أحب صدر الدجاجة .

ـ وأنا كذلك .. هل فهمت المشكلة ؟.. إن طباعنا متماثلة ..

(*) الفيلسوف الألمانى (فيخته) .. وعندنا واحد منه لحسن الحظ !

- .. لكنى سأتنازل لك عن كل صدور الدجاج فى العالم، لو غدوت زوجتى !

قالت فى شرود :

- على كل حال يمكن دائمًا تقسيم صدور الدجاجة إلى نصفين ..!

وقضينا طيلة اليوم نمشى فى الطرقات نتجادل .. بذلت أقصى جهد ممكن كى أزيل فيلسوفها من رأسها .. قالت لى :

- .. ولو رزقنا بطفل ؟.. كيف سيكون ؟.. إنه أول طفل فى التاريخ يولد لأبوين متماثلين كرموسوميًا .. كأننا أنتجناه بانقسام ميتوسى كالأميبا .. ولا أريد أن يكون ابنى أميبا ..!

- إنه سيشبهنا فى كل شىء .. هذا هو كل شىء .

تنهدت .. وقالت :

- ستندم يا (سالم) .. لكنى .. سأوافق !..

* * *

أنشودة (سالم)

هى جزء منى وأنا جزء منها ...
إن لون عينينا واحد ...
طول قامتنا واحد ...
نحب نفس الألحان ...
ونهوى ذات الأطعمة ...
تدمع أعيننا حين نرفعها نحو الكون اللامتناهى ...
فمن نجمة منه فى مجرة ما ...
جاءت هى .. ولم تحسب لحظة أنها ستكون لى ...
إنها تفهم أفكارى قبل أن أشرحها ...
وتضحك من دعاباتى قبل أن أقولها ...
إنها لى .. وأنا لها ...
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ...

* * *

أنشودة (سلمى)

اسمه يشابه اسمى ..
إننى وحيدة فى هذه المجرة بأسرها ..
لكنى أثق به ..
لأنه منى .. وأنا له ..
يحب نفس العطور .. يصغى لنفس الألحان ..
يشاهد ذات البرامج .. يملك نفس سذاجتى ..
وبراءتى .. وحماقتى ..
إنه لى .. وأنا له ..
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ..

★ ★ ★

أنشودة (سالم)

ثمة أشياء تضايقنى ..
أشياء قليلة جدًا ..
أنها تقرأ الصحف قبلى ..
تدخل الحمام فى نفس اللحظة التى أفكر أنا فيها فى دخوله !
تسبقنى إلى مقعدى المفضل لأنه مقعدها المفضل ..
أنها تفكر مثلى ..
لهذا لن تدهش يومًا لفكرة خطرت لى، أو تضحك من دعابة ..
أنها لا تغار علىّ ..
ولا تنبهر بى أبدًا ..!
والأسوأ أنها تلتهم صدر الدجاجة قبلى !
لست حزينًا ولا حانقًا ..
لأنها لى، وأنا لها ..
فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ..

★ ★ ★

أنشودة (سلمى)

هو يملك كل عيوبى، ونقاط ضعفى، ونفس النهم فى الطعام..

إنها عيوبى أنا .. أعرف هذا ..

لكنى ـ كأنثى ـ تمنيت منذ عرفت أننى أنثى، أن يسبقنى زوجى بخطوة ..

مجرد خطوة ..

حياتنا تتحول إلى تنازل مستمر من كل منا، عن الأشياء التى يحبها حتى لا يتهم بالأنانية ..

والشنيع أنه يلتهم صدر الدجاجة قبلى ..!

لست حزينة ولا محبطة ..

لأنى له .. وهو لى ..

فلك الحمد يا خالق الكون السرمدى ..

★ ★ ★

أنشودة (سالم و سلمى)

ربما كان خطأ فادحا أن تتزوج نسخة منك ..

لأنك قد لا تحتمل الحياة مع نفسك ..

لكننا سعيدان برغم كل شىء ..

★ ★ ★

شرع المدير يتأمل الأوراق الأخيرة فى شىء من الاهتمام .. ثم أشار إلىّ بطرف السيجار المشتعل قائلًا :

ـ لا بأس يا (سالم) .. إنها ليست فكرة سيئة .. أعترف بهذا ..

ثم نظر لى فى شرود :

ـ إلا أن هذه المحادثة الأخيرة بينهما .. تلك المحادثة حول صدر الدجاجة .. ألا ترى أنها متحذلقة نوعا ؟!

قلت فى تواضع، وأنا أحك طرف حذائى فى قماش البنطال :

- لكنها ضرورية يا سيدى ..

- والقصيدة النثرية الأخيرة .. إنها تقتل التشويق قتلًا ..!

قلت متوسلًا :

- سيدى .. أعطنى فرصة لأقول ما أريد قوله ..

طوى الأوراق .. وناولها لى فى فتور :

- حسن .. دعنى أر كيف ستتطور الأحداث .. والويل لك إذا لم تكن مسلية !!

* * *

٤ - دعنا نرحل ..

شهر كامل مرّ على زواجنا .. كان زواجًا كأى زواج آخر، فيما عدا أننى لم أشتر أثاثًا، ولم أدفع مهرًا بالطبع ..، وكانت أيامنا موزعة ما بين الانبهار بتشابه طباعنا، وما بين السخط على ذلك ؛ حين دق الشرطى بابى طالبًا منى أن أذهب للمخفر لأمر هام ..!

كانت (سلمى) تعد لى طعام الإفطار، حين عدت لها مهمومًا .. لم يكن الأمر يحتاج لتأويل كثير .. لقد وجدوا الحقيبة .. وبالطبع ستكون هناك أسئلة كثيرة عن العملات العجيبة، وجهاز (التيليترانسبورتر)، وعندئذ ستبدو قصتى عن الكوكب (١٤٩ أ- مجرة [تازما لورى]) واهية جدًا وسخيفة جدًا ..، ثم إننى - حين يتعلق الأمر بزوجتى - لا أرغب فى أى نوع من الضوضاء ..

ذهبت معها إلى المخفر .. وكما توقعت لم يتم أى شىء بسلاسة بل ظللنا ننتظر ساعتين فى غرفة (النوبتجى) .. ثم استدعونا لنقابل رئيس المباحث .. لقد شاهدت هذا المشهد مرارًا فى كوابيسى، وأعرف تمامًا ما سيحدث لكنى كنت أستيقظ غارقًا فى العرق قبل أن أعرف كيف سينتهى ..!

ها هو ذا رئيس المباحث فى غرفة يملؤها دخان التبغ .. يحيط به ثلاثة شبان شديدو الوسامة صارمو الوجود .. والجميع يرتدون ربطات عنق نصف معقودة على القمصان دون سترات ..

وأمامه كانت الحقيبة .. وكان ودودًا مجاملًا بتلك الطريقة التى يجيد رجال المباحث أداءها .. الود المرعب ..

- هذه الحقيبة تخص المدام طبعًا ؟

أحنيت رأسى موافقًا ..

- وماذا فيها ..؟

قالت (سلمى) على الفور ما كنا اتفقنا عليه مسبقًا :

- نقود .. نقود مرسومة من التى تُستخدم فى المسرحيات .. وأوراق .. وآلة ترجمة (عربية - إنجليزية) معطلة ..

ساد الصمت لحظات .. وشرع الضباط يتبادلون النظرات .. كان الجو متوترًا بشكل ملحوظ .. قال رئيس المباحث بعد دقائق :

- الآلة لاتعمل .. هذا صحيح .. لقد حاولنا إجراء عمليات حسابية بها بلاجدوى .. وقد تأكدنا عن طريق خبير إلكترونيات، أنها ليست جهازًا للتجسس .. لكنه لم

يعرف كنهها على الاطلاق .. أما العملات الورقية فهى لاتشبه أية عملات على وجه الأرض .. إنها دعابة .. لكنكما ستفسران لى أين وكيف استطعتما طباعة عملات لها علامة مائية وخيط .. وأين وجدتما نوعية الورق ؟!..

ثم ابتسم ابتسامة صفراء .. وأشعل سيجارة :

- والآن لنر أوراق المدام، فهى تستحق بعض علامات الاستفهام .

وأخرج بطاقة مغلفة عليها صورة (سلمى) .. ولوح بها فى وجوهنا .. قائلًا :

- هذه البطاقة مكتوب عليها .. (سلمى محمد شحاتة) .. مواطنة رقم (١٢٤/٦٢/٥٣) .. تصريحات (أ . ع . م) .. وهذا ليس كل شىء .

وأخرج بطاقة أخرى من الحقيبة .. وشرع يقرؤها :

- هذه رخصة قيادة .. لأى شىء ؟.. لسيارة (خوارزمى) طراز ١٤٢٢ هجرية ..!

ثم فقد صبره واحمرت عيناه حنقًا :

- والآن لاتقولى إن هذا كله خاص بالمسرحية يا (مدام) ..!

وأطفأ السيجارة فى فنجان القهوة أمامه .. وشرع يعيد على الشبان الواقفين حوله ـ ووجوههم جامدة كالصخر ـ ما قاله .. إن موقفنا صعب .. صعب للغاية .. ولن يصدقونا قبل أن نمضى معهم شهرين أو أكثر .. وبعدها لن يصدقونا أبدا ..

ـ والآن .. أريد تفسيرًا .

قالت (سلمى) فى كياسه :

ـ عن أى شىء ..؟

ـ عن كل هذا .. يبدو لى أنك قادمة من عالم آخر ، له قوانينه وعملاته ورخص قيادته وبطاقاته الشخصية .

احمر وجه (سلمى) ونظرت للأرض .. لو عرف كم هو محق ! ثم إنها أخذت نفسًا عميقًا يتناسب مع الأكذوبة التى تنوى قولها .. وبعد هنيهة همست :

ـ سيدى .. إن هذه الآلة آلة ترجمة وأستطيع إثبات ذلك .

ـ إذن أرينى ..

مدّت يدها إلى الجهاز .. يدها اليمنى .. فى حين أطبقت حول يدى اليمنى يدها اليسرى وضغطت ضغطة ذات معنى ..

توتر الشبان في انتظار ما سيحدث .. قالت وهى تتحسس الأزرار بأنامل يدها المطبقة على الجهاز :

ـ مثلا .. دعنى أطلب رقمًا ٣٠٠٢٠٠٢٠٠

يا إلهى !.. فهمت !.. إنها تحاول الهرب أمام عيونهم . ستشغل الجهاز لتقذف جزيئاتها إلى أرض أخرى، كلا يا (سلمى)!.. لا تخالفى القانون!.. ولكن أى قانون؟.. قانون كوكبها أم كوكبى ؟.. ثم لماذا تضعين الجهاز على المكتب، وتقرعين الأزرار باليد الأخرى ؟..

الطبيعى أن تمسكيه باليد اليسرى وتقرعى الأزرار باليمنى .. آه !.. فهمت !.. لا يا (سلمى) .. أنا لا أريد .. لا ..

ـ هذا يكفى يا مدام .. هاتى الجهاز ..

ـ لحظة يا حضرة الضابط .. (ب-٣) .. ثم زرّ الإدخال ..

ـ أنا لا أمزح .. هاتى الجهاز واتركى يده ..!

فى هذه اللحظة كانت قد أمسكت الجهاز بيدها .. وبأصبع واحدة داست زرّ الإدخال بالفعل ..

وتلاشت الغرفة من حولنا ..!

* * *

الكون .. الفضاء .. النجوم ..

ـ هل أنا أحلم ؟..

ـ كلا .. أنت لا تحلم .. جزيئاتى وجزيئاتك تمتزج بالكون ذاته .. لم يعد ثمة كيان مادى لنا .. نحن طاقة .. روحان تبحران عبر الأبعاد الأربعة ..



ـــ ولماذا أتركك وقد توحّد مصيرانا للأبد ؟ .. لن تعود لأرضك
ولن أعود أنا .. سنجوب الأكوان معًا ..

هل تشعر به ؟.. هل تفهمه ؟..

أنا وأنت فقط فى الفضاء .. يدك فى يدى جعلتنا فى نظر الجهاز كيانًا واحدًا .. وهذا الكيان تلاشى !.. امتزجت جزيئاتنا، وغدونا حزمة لاكيان لها ..

- إننى خائف .. قولى إنك لن تتركينى أبدًا ...

- ولماذا أتركك وقد توحّد مصيرانا للأبد ؟.. لن تعود لأرضك ولن أعود أنا .. سنجوب الأكوان معًا .. نرى مجرات أخرى .. ألف أرض وألف زمن .. وألف بلد ..

سنهبط فى أى مكان .. المحيط .. القطب .. زائير .. مصر .. وفى زمن لايعلمه إلا الله تعالى ..

هل يؤثـر هذا فيك ؟.. ليس لك جسد مادى لكنك ترتجف !.. أنت خائف ..

- هل ستظلين معى ؟..

- طالما ظللت أنت معى ..

- (سـلمى) .. مـاذا لو خلط الجهاز جزيئـاتك بجزيئاتى ؟.. أى كائن سنصيره ؟.. أربعة عيون وأربعة أيدى وفمان ..!

- إنه الحلم الأزلى لكل عاشقين .. أن نصير واحدًا للأبد .

السُدم النجمية تتوالى .. ألوان لاحصر لها .. ثقوب سوداء .. الكون يفصح عن أسراره لنا فقط .. أنا وأنت ..

ـ أنا وأنت روحان يجوبان الكون بلا أجنحة، نحو أرض أخرى، ربما أكثر جمالًا ورحمة ..

ـ هل تشعر بلذة الهرب !.. أن تلقى بأعبائك وأعصابك وتحلق ؟.. إننى أقترب من سر الكون .. إن الحقيقة الوحيدة هى الإله الذى أوجد كل هذا الجمال .. ونحن جزء من كل هذا الوجود الذى لايُصدّق ..

نحن مجرد نمل يحيا فوق برتقالة فاسدة نتصارع .. ونحقد .. بينما الكون يردد لحنه الأعظم .. فلانصغى ..

ـ أنت لى وأنا لك .. قوليها .

ـ أنت لك وأنت لى .. هل هذا يرضيك ؟..

ـ لن أخشى شيئا بعد اللحظة .. فلتزأر العاصفة .

* * *

ـ لقد طال السفر صغيرتى .. طال ..

ـ إننا نبحر عبر المجرات .. فلا تقلق .. انظر لهذا النجم المحترق ..

يا له من حلم .. هل ترى ؟

ـ ماذا ؟..

ـ هناك !.. الكوكب (٣٢٢ـبـ٣) .. أرضنا الجديدة .. هل تراها ؟..

ـ نعم .. نفس القارات والمحيطات وكل شىء .. كأنها صورة بالقمر الصناعى لكوكب الأرض .. هل هذا حقيقى ؟.. هل أنا بالفعل وسط كل هذا الجمال ؟.. أنا بالذات ؟..

ـ اصمت .. واستعد للتجسد .

* * *

كان أول ماشاهدناه ـ عند التجسّد ـ هو .. حجرة رئيس المباحث مرة أخرى !.. ياللهول ..!.. لم يكن الضباط موجودين، وكان هو يرتدى سترته الكاملة .. وما إن رآنا حتى اكفهر وجهه .. وصرخ :

ـ من أنتما ؟.. كيف دخلتما ها هنا ؟.. (نصّار) !.. (نصّار) !

نظرت نحو (سلمى) هامسًا .

ـ كيف عدنا ها هنا مرة أخرى ؟

همست فى شىء من الفتور :

ـ ألم تفهم بعد ؟.. هذا هو رئيس مباحث قسم شرطة الكوكب (٣٢٢ـبـ٣) ..!.. إنه يرانا للمرة الأولى ..!

اندفع جندى الحراسة الريفى داخل الحجرة مذهولًا .. كيف ومتى دخلنا من الباب ؟.. على حين شرع رئيس المباحث يوبخه :

- هأنتذا واقف على الباب كالناطور ..!.. كيف دخل هذان ؟..

قالت (سلمى) فى حرج :

- نهارك حليب يا سيدى ..

- ماذا ؟..

- أعنى صباح الخير .. كنا نريد عمل (فيش وتشبيه)، وظننا أن هذا المكتب ..

- ليس هو !.. والآن أغربا من هنا ..!

دفعنا (نصار) الريفى الساذج إلى باب الخروج، وهو يضرب كفًا بكف من الطريقة السحرية التى مررنا بها بجواره ... ثم عاد ليتلقى توبيخه من رئيسه ..

وهكذا وجدنا أنفسنا حرين فى الهواء الطلق .. فى هذه الأرض الجديدة !

★ ★ ★

٥ ـ أرض بلا أجداد ..

حين يمشى رواد الفضاء فوق القمر، أو يستكشفون مدن الفضاء فى قصص الخيال العلمى، يكون كل شىء مختلفا .. كل شىء ينبئ بالتباين الملحوظ ..

أما فى حالتنا هذه، فكان من المستحيل أن أبتلع فكرة أن هذه (قاهرة) أخرى .. وأن هؤلاء البشر الذين يروحون ويجيئون أمامنا، هم (كائنات فضائية) .. ومن الصعب أن أصدق أن زوجتى اللطيفة هذه، هى (مخلوق من الفضاء الخارجى) !.. إن هذا لا يُوصف ..

نفس شوارع القاهرة المزدحمة ووجوه البشر ..

فى إحباط همست لها :

- دائما نفس الاختيارات غير الموفقة يا (سلمى) .. هذه أرض مطابقة تمامًا لأرضى أنا ..

- صبرًا .. لابد من اختلافات .. حتمًا لابد من اختلافات .

ثم قالت وقد بدا عليها الإنهاك :

- إنى مُتعبة .. هلم إلى دارنا ..!

لمست كتف رجل يقف بجوارى، وسألته بكياسة عن طريق الوصول إلى شارع الهرم .. لم يبد عليه أنه يعرف مكانه أو سمع عنه أصلاً ..

إن نظريتى تتضح ..

وفى كل مكان أجد ما يدعمها أكثر .. وأكثر ..

كل فندق أو شارع أو ميدان، يحمل فى عالمى اسمًا فرعونيًا .. استبدل باسمه هنا اسمًا يونانيًا أو هنديًا أو بابليًا .. فندق (نبوخذ نصر) .. استراحة (جلجاميش) .. كافتريا (الأوليمب) .. ميدان (كونفوشيوس) .. الخ ..

ركبنا الحافلة إلى ميدان التحرير .. لحسن الحظ لم يلحظ المحصل اختلاف العملة .. أعطيته خمسة جنيهات .. وهكذا وجدت فى يدى كمًا لا بأس به من أوراق النقد لهذا الكوكب .. وكلها تحمل صور (يوليوس قيصر) و (زيوس) و (أبوللو) ..!

وفى الميدان نزلنا .. قالت (سلمى) وقد بدأت تشعر بغرابة الأمر :

- إن هذه (القاهرة) ليس بها سياح على الإطلاق !

أشرت إلى مساحة شاسعة خاوية من الميدان .. وأيدت كلامها :

- تعنين دار نسختنا فى هذه الأرض ..؟.. لا أعتقد أن تطابق الكوكبين سيصل إلى درجة تطابق مفتاحى الشقتين .

كنا واقفين جوار إحدى محطات (الميني باص) .. وكانت جوارى بائعة سجائر عجوز تفترش الرصيف ..، تقدم نحوها رجل يخرج ورقة نقد من جيبه، وقد بدا على عجلة :

- علبة (بابل) ..!

- لا توجد عندى سوى سجائر (فينيقيا) ..!

انصرف الرجل باحثًا عن ضالته عند أخرى .. أما أنا فقد استرعت انتباهى تلك الأسماء غير العادية للسجائر .. والأغرب هو منظر الجنيه الذى أخرجه لها .. جنيه ليس عليه أية صورة لتماثيل فرعونية مثل جنيهاتنا، بل نقش دقيق لتمثال (زيوس) ..

لم أصارح (سلمى) بأسئلتى، خاصة وأن ذكرى جنيهاتنا الزرقاء لا تبرح مخيلتى .. المهم ألا يلاحظ من يأخذ نقودًا منى اختلاف العملتين، خاصة وأنهما شديدتا التشابه ..

لاحظت أيضًا اختلافًا كبيرًا فى أسماء الشوارع والضواحى المكتوبة على الحافلات .. إن لدى نظرية ما .. لكنى أحتاج إلى إثبات ..

ـ وليس بها متحف مصرى ..!

ـ هذا صحيح .. ولكن .. ما معنى ذلك ؟

ـ معناه أننا نعيش فى (قاهرة) لا تعرف الفراعنة ..!

★ ★ ★

لكن السؤال الأساسى هنا هو .. هل حقًا لم يعرف هذا العالم الفراعنة، لأنهم لم يوجدوا به، أم لأنه يجهل ذلك ؟.. لا أدرى .. لربما يتسع الوقت لقراءة كتب تاريخهم فيما بعد .. أما الآن فإن قدمىَّ قد تورمتا .. وأشعر أن جسدى كله هو وتر كمان قديم أنهكه العزف .. يجب أن نستريح .. فندق ؟.. لا .. من أين لنا بالمال خاصة وأن الدفع فى الفندق لن يكون هينًا كالدفع فى الحافلة .. سيدققون فى عملاتنا وحتمًا سيلاحظون الاختلاف ..

(سلمى) أيضًا منهكة .. أعرف هذا تمامًا لأننا ننشط معًا ونتعب معًا .. نفس نسب حمض (اللاكتيك) فى عضلات ساقىَّ وساقيها .. ونفس انخفاض نسبة السكر فى الدم .. ونفس استهلاك حبيبات (نيسل) فى خلايا مخى ومخها .. لأنها ـ كما تعرفون ـ أنا أخرى ..!

كنا قد وصلنا ـ دون أن نشعر ـ إلى بيتنا .. أعنى بيت نسختنا ..! وشرعنا نتأمل فى حنين المدخل المألوف .. ونباتات الظل البائسة المحتضرة فى أصصها على الجانبين .. والبواب الغافى المُنْهك ..

ودخلنا ..

عند الطابق الثالث توقفنا .. وشرعنا نتأمل لوحة الاسم على الباب :

(سليمان شحاتة) .. مهندس ..

إذن هذا هو أنا ـ أو (سلمى) ـ لا أدرى بالضبط .. نفس اشتقاق الاسم الذى لا يمكن أن يكون صدفة ..

رفعت إصبعى المتوتر لأقرع الجرس فأوقفنى صوت (سلمى) :

ـ لحظة ..!.. هل فكرت فيما ستقوله له ؟

ـ لا ...

ـ لنْ تقول له طبعًا .. مساء الخير يا سيِّدى .. نحن نسختاك الكروموسوميتان القادمتان من كوكب آخر، ونريد المبيت عندك ..!!

ـ بالطبع لا .. لكن ماذا أقول إذن ؟.. لقد بدأت أفهم شعورها حين جاءت مكتبى أول مرة .. من حسن حظها أننى (جنتلمان) .. أما هذا فلربما كان فظًا .. ولربما يستدعى الشرطة، أو يملأ الدنيا صراخًا ..

ابتسمت ابتسامتى المعهودة بركن فمها الأيسر .. وقالت فى حماس :



وقرعت الجرس فى هستيريا .. سمعت صوت مزلاج يتحرك ..
وبرز وجه امرأة متسائلة ..

ـ اسمع .. الحل الصحيح هو أن ندخل ونتعرف عليه، ثم على ضوء انطباعنا نقرر مصارحته من عدمها ... أنا المدام حرمك وقد فقدت وعيى فجأة .. فماذا تفعل ؟.. تقرع أول جرس تصادفه طبعًا ..

ـ أو جرس فى الدور الثالث ؟

ـ وماذا فى ذلك ؟.. كنا صاعدين لعيادة الطبيب بالدور الرابع ..

ـ لا يوجد طبيب فى الدور الرابع ..

ـ سنقول له إن هذا ما عرفناه بعد أن صعدنا ..!.. والآن هيًا ..!

ودون كلمة أخرى، سقطت فوق ذراعى مغشيًا عليها .. حتى أننى شعرت بالذعر حقيقة لا تمثيلًا .. وقرعت الجرس فى هستيريا ... سمعت صوت مزلاج يتحرك .. وبرز وجه امرأة متسائلة ..

قلت لها بضع عبارات متخبطة، توحى بمدى ذعرى، وأنا أشعر برأس (سلمى) المدفون فى صدرى يهتز كاتمًا ضحكة .. لا ريب أننى بدوت لها سخيفًا إلى أقصى حدّ ..

أدخلتنا المرأة .. وأجلست (سلمى) على الأريكة، وشرعت تدلك وجنتيها فى حين شرعت أتأمل الشقة الأنيقة، التى لا تمت لشقتنا فى كوكبى بصلة ..

إن (نسختنا) على هذا الكوكب ميسور الحال بلا شك .. هذا بالطبع مالم تكن هذه السيدة هى نسختى .. وإن كنت لا أجد أثرًا لكروموسوماتى فى ملامحها الأرستقراطية ..

(سلمى) تفيق .. ويا لها من ممثلة بارعة .. عيناها ذابلتان، وشعرها مبعثر ورأسها يترنح .. أما المرأة فكانت حنونًا مع شىء من الحزم ..

صوت رجل يتساءل عما هنالك .. وجواره طفل صغير يرمقنا فى شىء من الفضول ..

تأملت الرجل .. ضخم العظام .. أشيب حليق الوجه، وكان منحرف المزاج، محمر الأذنين سميكة بما يدل على أنه كان نائمًا منذ ثوان نوم العصر الكئيب الملىء بالعرق والكوابيس ..!

مرة أخرى لا أجد كروموسوماتى فيه ..

صافحنى وأجلسنى، وشرع يسمع قصتى الملفقة الصغيرة، دون اكتراث حقيقى .. ثم إن زوجته نهضت وعادت لنا بصينية عليها زجاجتا مياه غازية .. نظرت إلى (سلمى)، فوجدتها ترمق الرجل بنظرة ثاقبة .. ثم تلاقت عينانا فالتوى ركن فمها الأيسر بمعنى أنها لا تفهم حقًا ..

لربما كنا مخطئين .. لربما كانت (نسختنا) لا وجود لها فى هذا العنوان، أو ربما لا وجود لها أصلاً ..

من غرفة بالداخل جاء الطفل يركض حاملاً كتابًا مدرسيًا، ويردد بعض الهتافات الطفولية المبتذلة :

ـ راجل وست .. جُم للبيت !!

نادته (سلمى) متظاهرة بالحنان .. ومررت يدها عبر شعره الخشن، ولثمت جبينه الضيق .. وسألته عن اسمه :

ـ شرريـ..يـ....يف !

ـ الله !.. اسم جميل يا شريف !.. وما هذا الكتاب ؟..

الله !.. التاريخ للصف الخامس عشر الابتدائى !!

الصف الخامس عشر الابتدائى ؟.. لا يهم .. لقد اعتدت هذا الخلط منذ سمعت عن السيارة (الخوارزمى)، وعن احتلال (تايلاند) (للصين) '

فتحت (سلمى) الكتاب، وشرعت تقرأ بصوت مسموع :

ـ إن (أرسطو) هو من أدخل نور الحضارة اليونانية إلى (مصر)، ولولاه لظلت (مصر) فى ظلام الجهل ..!!

ما هذا السخف ؟!

كلنا يعرف أن الفراعنة هم آباء الحضارة الحقيقيون .. ولم يكن للأخ (أرسطو) أى فضل من أى نوع علينا .. لكن من يدرى .. لربما كانت هذه هى الحقيقة على هذا الكوكب ..

والآن تشكو أم الطفل ابنها لـ (سلمى) كعادة النساء :

ـ تصورى يا مدام أنه يحب القراءة وشرب القهوة !.. تخيلى طفلًا يشرب القهوة !.. يضيع وقته مع القطط الصغيرة .. أليس كذلك يا (شريف) ؟.. هل أخبر (طانط) بالمزيد ؟.. إنه يقرأ القصص والمجلات فى الحمام ..!

ماذا ؟.. هذه العادات تبدو مألوفة !..

نظرت لـ (سلمى) فوجدتها مثبتة عينيها على وجه الطفل .. نظرت له فوجدت ما كنت أتوقعه ..

كان يبتسم بزاوية فمه اليسرى ..!!

* * *

٦ ـ صديق ..

كما هو متوقع لم نرفع أنا و (سلمى) عينينا طيلة الجلسة عن ذلك الطفل . كان مزعجًا كثير الحركة والتظرف .. وإننى لأعجب كيف تحتمله أمه .. ربما هى نفس المعجزة التى جعلت أمى تحتملنى ...، وكنت قد بدأت أتبين فى ملامح الزوجين، ملامح أبى وأمى فى صغرهما .. أما (سلمى)، فهمست فى أذنى وهى تتأمل ملامح الرجل فى اهتمام :

ـ هذا الرجل .. إنه يشبه أمى جدًا ..!!

ـ هكذا ..!.. والمرأة تشبه أباك طبعًا ؟

ـ بالفعل ..!

طالت الجلسة .. وبدأ ذلك التوتر والتململ المنذران بوجوب انتهائها بخيْمان ... بالطبع لن نستطيع الاستفادة منهما أكثر ، ولن نجرؤ على طلب المبيت أو طلب نقود ..

نهضت مؤذنًا بالانصراف، فنهضت (سلمى) معى متثاقلة .. انحنيت على أذن (شريف) وقربت فمى منها وهمست :

- وداعًا أيها العبقرى الصغير .. عندما تكبر لاتحاول أن تسرق قصة من (هـ . ج . ويلز) ، وتقدمها للناشرين .. إذ سيفتضح أمرك على الفور..!

لم يفهم كلامى - طبعًا - وشرع يبتسم فى بلاهة ..

شكرنا لهم حسن ضيافتهم .. وشرعنا ننزل السلم .. عند الطابق الثانى وجدنا باب جارتنا (عواطف) مفتوحًا ، وابنتها (هدى) - (هدى) هذه الأرض طبعًا - واقفة تثرثر مع صديقة لها ..

همست (سلمى) فى غلّ حقيقى .

- آه!.. إنها تلك السحلية الثرثارة !.. عندهم منها واحدة هنا أيضًا !.. إنها تطاردنى فى كل المجرات ..!

- صه !!.. هى حادة السمع أيضًا ..

★ ★ ★

هل نعود لعالم (سلمى) بعد أن أغلقت كل الأبواب دوننا ؟..إن الكون يبدو لنا الآن أضيق من سمّ إبرة الخياط.. لاصديق .. لاعون .. لانقود ... والمشكلة أننا سنواجه نفس الشىء فى كل أرض أخرى .. إن اختلاف العملات يجعل ارتياد العوالم الموازية أمرًا شبه مستحيل ..

وقد عرضت على (سلمى) أن ننهى كل هذا .. فقالت :

- ربما أفعل ... ولكن فى اللحظة الأخيرة قبل أن نقضى جوعًا .. !.. ليس الآن حتمًا ..

وهكذا نمضى مطوحين قامتينا مجرجرين أقدامنا فى الطريق ..

متشابهين كتوءمين .. متشابكى الأيدى كعاشقين .. حائرين كذبابتين ..

تعسين كطفلين حُرما من حيوانهما المدلل ..!

المدينة هى المدينة .. الوجوه نفس الوجوه .. الشوارع ذات الشوارع .. لكننا غريبان !... نعرف الجميع بينما لا أحد يعرفنا ..

ترى أية مغامرة مجنونة أقحمنا نفسينا فيها ..!

لكن ما كان يعزينا، هو أن لدينا بابًا خلفيًا جاهزًا للهروب منه ، حين تسوء الأمور أكثر من اللازم ... قد تتكاثف السحب لكنك تعرف أن القطار ينتظرك ، وأن تذكرة الرحيل فى جيبك ... أن تهرب .. إلى أين ؟.. لايهم .. المهم أن ترى وجوهًا أخرى وأماكن أخرى وتشم روائح جديدة ..

قالت (سلمى) وقد شعرت بما أشعر به :

- نعم .. أنا أيضًا أحلم مثلك .. لكننا لم نهرب (إلى) هذا الكوكب كى نهرب (منه) بعد ساعات ..!

إن هذا النوع من المفاجآت لم يعد يثير دهشتى .. إن تفكيرى وتفكيرها متزامنان ومتطابقان ، إلى حدّ مفزع .. يكفينى أن أفكر فى شىء ما ، حتى أتأكد من أنها تفكر فيه فى ذات الوقت ..

قلت فى سخرية مريرة :

ـ المشكلة هى أننى جائع ..

ـ إذن فلنأكل .. إن معك ما تبقى من نقود الحافلة ..

اشتريت بعض الساندويتشات .. ومضينا نلوكها ونرمق المارة فى لامبالاة ..، أدركت أنها ـ وقد أنهت ساندويتشاتها ـ لم تزل جائعة، لأن الجوع كان يعتصر معدتى أنا .. ناولتها ساندويتشاتى .. نظرت لى فى حنان، وابتسمت ابتسامة صفراء حزينة، ثم بدأت تأكل ..

والآن أشعر أننى امتلأت ولم أعد بحاجة للمزيد ..

★ ★ ★

فجأة صرخت (سلمى) فى حماس أنها تذكر هذا الشارع تمامًا .. إنه الشارع الذى يعيش فيه (د. محمود) فى عالمها ..

ـ د . (محمود) من ؟

ـ إنه ذلك العالم .. مخترع جهاز (ناقل الجزيئات) .. هل نسيته ؟

ـ طبعًا .. كأنك حكيت لى عنه منذ قرون ..

ـ إنه رقيق الحاشية، دمث الخلق، وليس من دیدنه طرد المعتوهين الذين يزعمون أنهم من كوكب آخر .. فلماذا لانرى إن كان عندهم واحد منه هنا ؟..

قلت لها فى تؤدة :

ـ وهل تظنين أنه سيعرفك ؟.. إذا كنت أنت ـ أو أنا ـ مجرد طفل سخيف على هذا الكوكب ؛ فلماذا تفترضين أننا لن نجد عالمك هذا طفلا رضيعًا، أو لاوجود له على الإطلاق ؟!

ـ لا أعتقد أنه كان طفلا فى يوم من الأيام .. وعلى كل حال لن نخسر شيئًا ..

وشرعنا نجرّ أقدامنا المنهوكة شاعرين أن أحذيتنا هى أدوات تعذيب شيطانية، من عهود محاكم التفتيش .. مدخل البناية الرطب والسلالم .. الطابق الثانى .. ثم .. الباب ..

عندهم د . (محمود) بالفعل فى هذا الكوكب .. ويمكن لـ (سلمى) أن تسترد أنفاسها المبهورة .. لكن المشكلة هى أن اللافتة تقول إنه (خبير آثار) مما ينفى تمامًا أن يكون نفس الشخص .. لكن (سلمى) أعلنت ـ فى ثقة ـ أنه هو المقصود .. لأن (محمود بكر) فى عالمها كان يهوى الآثار إلى جانب مهنته كـ فيزيائى ... إنها تلك الاختلافات البسيطة الضخمة بين الكوكبين، ولربما كان هذا الـ (محمود) يهوى الإلكترونيات هنا !!

لم أبد متحمسًا، لأننى رأيت كل هذا بلاجدوى على الإطلاق ..

انفتح الباب ـ عندما قرعنا الجرس ـ عن رأس أصلع، ووجه كالح، كث الشارب .. إنه هو !.. هذا واضح .. لأن (سلمى) كادت تنسى حذرها وتهلل وتقفز عند مرآه، لولا أن طقطقت بلسانى محذرًا .. كادت تنسى ـ الحمقاء ـ أن زميل العمل العزيز هذا لم يرها فى حياته !!..

قالت فى صوت يتصنع الرزانة، (وإن بدا متهدجًا نتيجة تأثرها) :

ـ دك.. دكتور (محمود) ؟

قال فى دماثة ورقة حاشية (لحسن الحظ) :

ـ أنا هو ..

ـ نهارك حليب ..

فتح فاه ليقول شيئًا إلا أنها بادرت بالكلام :

ـ أنا (سلمى) .. وهذا زوجى ..

هزّ رأسه فى رقة، بمعنى أن ما تقوله جميل. لكنه لا يعنيه على الإطلاق ..

ـ هـ .. هل .. يمكننا الدخول ؟

ـ لا ..!

قالها كسدادة مصوبة إلى حلقها .. دمعت عيناى ضحكًا على الرغم منى .. لكن (سلمى) لم تيئس :

ـ دعنى أتحدث لحظة .. أنت د . (محمود بكر) ..

ـ هذا اكتشاف لا بأس به ..

ـ فى طفولتك كنت تهرب من المدرسة، وتفتش عن كنوز وهمية مدفونة فى حدائق الجيران ..

كاد الباب يُغلق فى وجهها، لولا أن بادرت بوضع قدمها فى فرجته لتمنع غلقه .. وواصلت الكلام فى حماسة وسرعة :

ـ فى الجامعة كنت تخفى ثقبًا فى حذائك، عن طريق السير بشكل مفتعل .. لكن صديقك كان يسخر من هذا ويسمى حذاءك (حذاء أبى القاسم) ..!

بدأت مقاومته تلين نوعًا، حيث وقف خلف الباب ..

ـ .. وكان والدك يصرّ على أن تكون محاميًا لكنك خذلته .. و ...

وهنا كانت مقاومته قد انتهت تمامًا ..

فتح الباب، وألف علامة استفهام ترتسم على وجهه، وقطرات من العرق البارد تحتشد على جبينه .. وفى بطء همس :

ـ أرجوكما أن تدخلا ..!

★ ★ ★

ـ هذه هى قصتنا ..

قالت (سلمى) وهى تكوم قشور اليوسفى فى قبضتها توطئة لأن تضعها فى مطفأة السجائر أمامها .. كنا جالسين فى غرفة الصالون التقليدية المتظاهرة بالفخامة ، والتى تراها فى كل بيت مصرى حتى على هذا الكوكب .. وكانت زوجته تصب لنا الشاى بيد مرتجفة ، وهى تختلس لنا النظر .. واضح أنها لم تبتلع بعد فكرة أن تجلس مع (كائنات من الفضاء الخارجى) .. أما د . (محمود) فكان منفعلًا ومتحمسًا إلى حدٍ لا يُوصف ..

قال لنا وهو يهرش فى صلعته :

ـ لولا أنكما أخبرتمانى بأدق أدق أسرارى، لما صدقت حرفًا .. كنت أظنكما نصابين، خاصة وأن حالة ثيابكما توحى بذلك !

قالت (سلمى) وهى تقشر ثمرة يوسفى أخرى :

ـ الواقع أننى اتبعت هذا الأسلوب من قبل مع (سالم) فى لقائنا الأول، على أننى كنت محظوظة .. لقد أخبرنى د . (محمود) فى كوكبى بالكثير عن نفسه لأنه ..

واحمرّ وجهها قليلًا .. واردفت :

ـ .. كان يريد الزواج منى ..!

يا لها من كلمة !.. إن الموقف عجيب حقًا، لكننى شعرت بعدائية مفاجئة تجاه د . (محمود) الجالس معنا، برغم أنه لا ذنب له فى الموضوع .. وفى عينى زوجته التمعت نظرة غيرة حاقدة، وهى ترمق (سلمى) كأنها تقول: كيف يُعجب زوجى ـ أو حتى نسخته ـ بهذه المخلوقة ؟!

قالت (سلمى) لتزيل آثار اعترافها الأحمق :

ـ .. ولحسن الحظ أنك لم تختلف عنه كثيرًا فى هذه الذكريات ..

ـ .. فيما عدا أنه متزوج طبعًا !

كنت أنا قائل هذه العبارة حين شعرت أنها ستزيد الطين بلّة لا محالة .. وبدأت أسأله عن أحوال هذا الكوكب .. وعن الاختلافات غير العادية التى لاحظتها أنا و (سلمى) طيلة اليوم .. فماذا يعرفون عن الفراعنة ؟ ولماذا لا يعترفون بفضلهم ؟..

قال لى وهو يبتسم فى ثقة العلماء المحنكين :

ـ الفراعنة ؟.. ماذا تريد معرفته عنهم ؟.. حفنة من الرعاة احتلوا وادى النيل لفترة ما .. ثم تركوه ..!!

ـ هكذا ..!.. وهل لا توجد عندكم أهرام، أو (أبو هول) ؟

ـ لدينا بالطبع .. وما علاقة ذلك بالفراعنة ؟!.. إنها لمسات الحضارة اليونانية البارعة فى مصر ..!..

كدت أنفجر غيظًا من هذا الخلط .

ـ و (الكرنك) و (الدير البحرى) و (فيلة) ؟!

بدت على وجهه معالم الحيرة والغباء .. فأدركت أن الأمر فيه اختلاف فى المسميات لا أكثر .. لهذا قلت له موضحًا :

ـ معابد .. فى الصعيد .. جنوبًا ..

ـ آه !.. تعنى معابد (ديانا) و (أبوللو) الموجودة بالأقصر ؟.. لماذا لا تسميها بأسمائها ؟!

أرجو أن يمسك بى أحدكم قبل أن أهشم وجه هذا المعتوه ..!.. ألا يفهم هؤلاء القوم معنى كلمة (طراز) ؟.. ألم يلحظوا اختلافًا مابين آثار الفراعنة، وبين المعابد والتماثيل اليونانية ؟.. إن الطراز الفرعونى الأصيل لايمكن خلطه مع أى طراز آخر .. لكنه ـ كالعادة ـ كان يملك تفسيرًا مُقنعًا (له هو طبعًا) ..

ـ إن اليونانيين قد نجحوا فى إضفاء أكثر من نمط للطراز فى كل بلد زاروه .. وكان أسلوبهم فى (مصر)، يختلف عن أسلوبهم فى (اليونان) .. وهذا دليل آخر على عبقريتهم ..!!

ـ و ... وتماثيل الملوك وغيرهم ..؟

ـ كلها يونانية طبعًا ..!.. ألم أقل لك إنهم غيروا طباعهم لتناسب البلد ؟

ـ والهيروغليفية ؟.. هل هى لغة يونانية أيضًا ؟!

ـ إنها لغة سرية خاصة بالكهنة المصريين .. لكن لماذا نحتاج إليها طالما أن (هيرودوت)(*) لم يترك صغيرة ولاكبيرة إلا وحكاها ؟!

هنا اعتدلت فى جلستى .. لقد بدأت أفهم ..

ـ هل تعنى أنكم لاتعرفون اللغة الهيروغليفية ؟!

ـ نعم ..

ـ و ... حجر (رشيد) ؟..

مرة أخرى تبدو علامات الغباء على وجهه ..، سألته عن (نابليون بونابرت)، والحملة الفرنسية على (مصر) فقال لى إن هناك (واحدًا) بهذا الاسم حاول غزو (مصر) فى أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن الأدميرال البريطانى (نلسن) نسف أسطوله عن بكرة أبيه فى البحر الأبيض المتوسط ..

رفعت رأسى نحو (سلمى)، التى جلست تثرثر مع الزوجة فى أمور نسائية بحته، مثل أسعار الخضر وأسماء العطور والأقمشة على هذا الكوكب .. لم تكن على استعداد لسماع ما يدور فى خلدى من خواطر ..

إن هذا الكوكب هو جنتى ..!.. حتمًا هو كذلك ..!

* * *

(*) مؤرخ يونانى عظيم .. ويطلقون عليه (أبو التاريخ) .



مرة أخرى تبدو علامات الغباء على وجهه .. سأله عن (نابليون بونابرت) ، والحملة الفرنسية على (مصر)

٧ ـ كوكب الحمقى ..

طيلة الليل ظللت أذرع غرفة الفندق كالأسد الحبيس .. أدخن سيجارة وهمية هى قلمى .. وأحدث أشخاصًا لا وجود لهم .. وأضحك من نكات لم أسمعها ... كانت الأفكار تتصارع فى رأسى، حتى أنها ليسحق بعضها البعض .. أكثر من فكرة رائعة قضت عليها فكرة أخرى ..

إن أمامى مستقبلًا رائعًا .. رائعًا إلى حدّ أنه يثير الرعب فى نفسى ..

أما (سلمى) فكانت جالسة على الفراش، وقد أسندت ذقنها على ركبتيها، وضمت كفيها أمام ساقيها ترمقنى بعينين خرساوين ... ثم تكلمت بعد هنيهة :

ـ هل فقدت صوابك أخيرًا ؟.. كنت واثقة أن هذا سيحدث ..!

ـ هه ؟.. هل تريدين شيئًا يا ملاكى ..؟

ـ هل جننت ؟

توقفت عن الدوران فى الغرفة ورفعت يدى للسقف :

ـ لقد قدم لى د . (محمود) هذا هدية العمر ..

ـ لاتبالغ .. إن مبلغ المائتى جنيه هذا هو قرض للمبيت فى الفندق ... و ...

ـ كفى عن الحماقة يا (سلمى) !!.. إننى أتحدث عن مصير البشرية كلها، وأنت تفكرين فى المال .. هل سمعتِ ما قال ؟..

ثم إننى جلست على الأرض جوار الفراش، وشرعت أرسم على السجادة خطوطًا وهمية بإصبعى السبّابة لأؤيد كلامى :

ـ قال إن (نابليون بونابرت) لم يدخل (مصر) بتاتًا لأن (نلسن) قد دمرّ أسطوله فى البحر المتوسط ...، إن الحملة الفرنسية على (مصر) كانت حملة فاشلة تمامًا، وقد لاقت مقاومة عاتية، لكنها على الأقل نجحت فى إدخال الطباعة لـ (مصر) وإخراج كتاب (وصف مصر) .. ثم فك رموز اللغة الهيروغليفية .اعتمادًا على الجهود الباسلة لعالم الآثار الفرنسى (شامبليون) .. وهذا هو بيت القصيد ..

وضيقت عينىّ فى غموض :

ـ والآن .. كان (بونابرت) يلعب لعبة المساكة مع الأسطول البريطانى عبر أمواج البحر المتوسط .. ووصل (مصر) .. ووجد (حجر رشيد) الذى كان هو مفتاح رموز تلك اللغة .. ورفعت إصبعى السبّابة مؤكدًا كلماتى :

ـ لو وجد (نلسن) أسطول (بونابرت) لدمّره .. ولتغير وجه التاريخ .. وهذا هو ما حدث فى هذا الكوكب ..!، دمّر (نلسن) أسطول (بونابرت) .. لم يعثر أحد على (حجر رشيد) .. لم تتكشف أسرار الهيروغليفية .. لم يفهم أحد أية حضارة هائلة كانت هنالك .. ظلّوا يعتمدون على أكاذيب المؤرخين اليونانيين .. وظلّوا يؤمنون أنهم قوم بلا حضارة ولاتاريخ ..!

بدأت علامات الاهتمام تغزو وجه (سلمى) .. وسألتنى :

ـ وما هو دورنا فى كل هذا ؟

ـ ألم تفهمى بعد ؟.. إننا نحن المحظوظان الوحيدان اللذان وقعت عليهما مسئولية إخبار هذا الكوكب بتاريخه !!.. نحن من سنهدى لهؤلاء الحمقى معرفة أجدادهم .. سيعرفون تاريخ كل الأسر الفرعونية، منذ الأسرة الأولى وحتى عهد البطالمة .. سيفهمون كل ماكتب على الجدران والمسلاّت وقواعد التماثيل ...، إننا ـ أنا وأنت ـ سنقود هذا الكوكب إلى المعرفة !

ـ أنا وأنت ؟

ـ أنت وأنا ..!

* * *

قال د . (محمود) وهو يجد السير عبر أروقة ذلك المبنى :

ـ أتعشم أن تكونا قد نمتما جيدًا ..

قلت لاهثًا وأنا أحاول اللحاق به، ومئات الأسئلة تزدحم فى رأسى :

ـ رائع .. أشكرك كثيرًا ..

ـ كان الواجب أن تناما عندى، لكنكما تعرفان الظروف .. و ... لاتشكرنى .. إن هذا هو واجبى نحو صداقتنا العتيدة ـ أنا والمدام (سلمى) ـ على كوكبها !!..

وعند أحد الأبواب الجانبية دلف وأنا خلفه .. و(سلمى) خلفنا ..

كانت قاعة كبيرة مظلمة إلى حدٍ ما .. انتظرت بضع ثوان حتى اعتادت عيناى الظلام .. كان هناك عدد لا بأس به من الأشخاص الجالسين حول مائدة طويلة، تشبه موائد الاجتماعات .. وكانوا جميعًا يرمقوننى فى حدة وشك، ودخان التبغ يفعم هواء الغرفة، مما جعل الرؤية ضبابية تمامًا ..

قال لى د . (محمود) وهو يشير بلامبالاة إلى الجالسين :

ـ أقدم لك السادة الجالسين .. هذا هو الدكتور (...) من هيئة الآثار .. اللواء (...) من شرطة الآثار .. العميد (...) من كذا .. الأستاذ كذا من كذا .. الدكتور فلان .. البروفسير علان ... ألخ ...

وكنت قد نسيت كل شىء تقريبًا حين انتهى هو من تعريف آخر الجالسين، فيما عدا رجلًا واحدًا يرتدى بذلة أنيقة مدنية، ووجهه فى الظلام خارج دائرة الضوء .. قلت لـ:د. (محمود) متسائلًا :

ـ وهذا ؟.. هل هو (رقم صفر الذى لا يعرفه أحد) ؟!

لم يضحك .. ولم يضحك واحد من السادة المهمين، الملتفين حول المائدة لمحاكمتى، على شىء لا أدرى ما هو بالضبط ... إن رغبة جنونية فى الفرار تطاردنى لكن الأوان قد فات للأسف ..

ـ اجلس ..!

جلست فى حذر .. وأنا أشعر أننى نسيت كيفية الجلوس ..

ـ استرخ ..!

هكذا أمرنى سعادة اللواء الذى نسيت اسمه .. فاسترخيت على الفور ..

ـ اهدأ بالًا ..!

أمرنى بذلك أحدهم .. فهدأت بالًا على الفور ..!

بدأ الرجل ذو الوجه الغامض يتحدث بنبرات رزينة واثقة .. كان يرحب بى وزوجتى فى بلدنا (مصر)، حتى وإن كان على بعد ملايين الأعوام الضوئية من بلدنا الأصلى .. وقال إنه يأمل أن يؤدى تعاوننا إلى فتح جديد فى التاريخ، لأننى - إن كنت صادقًا - سأكون شخصية القرن وسيكون وصولى لعالمهم أهم حدث منذ اكتشفوا الكهرباء .. أما إذا كنت - لا سمح الله - كاذبًا ..!

وهنا أحسست بالقشعريرة تزحف عبر عمـــودى الفقرى .. لا داعى لأن يكمل كلماته ... لم يكونوا على علم بجهاز (ناقل الجزيئات) .. كل ما كانوا يعلمون هو أننا قذفنا بشكل ما إلى عالمهم .. وهكذا يظل عندى باب خلفى لا بأس به للهرب لو أرادوا بى سوءًا ..

- والآن حدثنا عن (حجر رشيد) .

ابتلعت ريقى .. وبدأت أتكلم بصوت متهدج فى البداية :

- إنه ذلك الحجر الذى وجدته الحملة الفرنسية قرب (رشيد) .. وكان عليه نص بثلاث لغات .. الهيروغليفية واليونانية والديموطيقية .. وقد تبين (شامبليون) العالم الفرنسى أن الفراعنة كانوا يدوّنون اسم الملك فى إطار مستطيل منحنى الجوانب، هو (الخرطوش) .. هكذا أمكنه استخلاص الأبجدية الفرعونية بمجرد المقارنة ..

خلع البروفسير (...) نظارته .. وسأل :

- ثم ؟...

نظرت حولى فى غباء .. ورفعت يدى :

- .. ثم لاشىء ..!

- هيه !.. لن تقول لنا إنك لاتعرف المكان الذى وجدوا فيه (حجر رشيد) فى عالمك .. أليس كذلك ؟!

- نعم .. وجدوه عند (رشيد)..!

- هذا واضح .. لكن ما هى إحداثيات المكان ؟.. إن (رشيد) ليست شجرة نحفر تحتها حين تعتلى الشمس الأفق ..

- لم أكن - طبعًا - مع الحملة الفرنسية حين وجدت الحجر .. .

- إذن أنت تعرف هذه الحروف الهيروغليفية ؟

- للأسف لا ...

- إذن ماذا نفعل ؟.. وما المساعدة التى قدمتها لنا ؟

لاشىء فى الواقع .. إن هذا درس طيب لمن يهوى السفر بين العوالم الموازية : لاتنس أن تأخذ معك قاموسًا للغة الهيروغليفية !

قال د . (محمود) فى تؤدة محاولًا تهدئة التوتر المخيم :

ـ أستاذ (سالم) .. إذا لم تستطع أن تقودنا إلى (حجر رشيد)، يمكنك على الأقل أن تخبرنا بمكان نصٍّ تعرف ترجمته .. وبالتالى يمكننا إجراء المقارنة على طريقة (شامبليون) الشهيرة هذه ..

هرشت رأسى مفكرًا .. وهنا ارتفع صوت (سلمى) للمرة الأولى :

ـ سيدى .. لقد قام (رمسيس الثانى) بكتابة اسمه على الكثير من المسلات والمعابد، حتى تلك التى لم يبنها .. ستجدون اسمه مكتوبًا مرارًا عند معبد (الكرنك) و (الدير البحرى)، أيًا ما كان اسمهما عندكم .

ـ و (تحتمس الثالث) أزال اسم والدته (حتشبسوت) من فوق آثارها، ليكتب اسمه هو ...

مضى الرجال يدونون ما قلته فى اهتمام .. وسكرتيرات قلقات يهرعن هنا وهناك، حاملات رسائل يبدو أنها هامة جدًا إلى (جهات معينة) فى مكان ما ..

وهكذا مضى الاستجواب الذى استغرق أربع ساعات أو أكثر .. كنت أنا و (سلمى) نعتصر خلايا ذهنينا، لاستخراج كل ما نذكره؛ ربما منذ دراستنا الابتدائية عن الفراعنة .. أبدًا لم نفطن لجهلنا المروع بالتاريخ الفرعونى، إلا حين وجدنا نفسينا بحاجة لتذكر ذلك التاريخ ..

كم كان عدد الأسر ؟.. أية أسرة بنت الأهرام ؟.. متى بدأت عبادة آمون ؟.. ما الاسم الأصلى لأخناتون ؟.. أين يقع وادى الملوك ؟

كم عامًا استمر كفاح (طيبة) ؟.. مَنْ من الفراعنة شيد تمثال (أبو الهول) ولماذا ؟.. من هو (بعنخى) ؟ ومن هو (سنوحى) ؟.. من هو ... متى ... لماذا ... كيف ...

كنا قد انتهينا أنا و (سلمى) .. ولو كنا قد اقترفنا جريمة ما، فإننا فى أتم حالاتنا النفسية لنعترف ..!.. إن هؤلاء السادة لايتعبون ولايعرفون الرحمة .. وقد استحال عقلى إلى ذبابة قد فرغ من امتصاصها عنكبوت ..

بعد أن طال التعذيب، قال الرجل غامض الوجه، وهو ينظر فى ساعته :

ـ أعتقد أن الوقت قد حان كى ننهى هذه الجلسة .. لدينا هنا كمًا لابأس به من المعلومات، وسيستغرق أسبوعًا أو أكثر فى التحقق منه، لهذا أشكركما .. وآمل ـ لمصلحتكما ـ أن تكونا على صواب !!

★ ★ ★

قرأ المدير الأوراق الأخيرة التى حملتها له مرة تلو مرة .. ثم قال دون حماس وهو يناولها لى :

- لا أستريح كثيرًا للمجرى الجديد للأحداث .. إن القصة تتحول إلى استعراض لثقافتك الفرعونيـــة، ولا أحسب القارئ واجدًا ما يشوقه وسط هذا الحشد من الأسماء والوقائع ..

ابتلعت ريقى وقلت فى شىء من نفاد الصبر :

- صبرًا سيدى .. إن اللهو لم يبدأ بعد ..

- لهـو ؟!..

- نعم .. إن هذين الغريرين يحسبان أن ما يعرفان - ويجهله هذا العالم - لكفيل بأن يجلب لهما الرغد والثراء ..

- هذا ما قلته أنت مرارًا .

استطردت فى غموض وأنا أعيد أوراقى إلى الملف :

- لكنهما سيعرفان إلى أى حد كانا مخطئين ..... سيعرفان ذلك بوضوح شديد ..!!..

* * *

٨ - شـــهـرة ..

لم تكن نعلم أنه فى الوقت الذى غفونا فيه فى فندقنا أنا و(سلمى) ، كانت هناك جيوش من علماء الآثار تعيد البحث فى معابد الصعيد .. وجيوش من المصورين تلتقط صورًا دقيقة لآلاف النقوش الجدارية المنسية .. وجيوش من خبراء الكمبيوتر، عاكفة على تلقيم أجهزة الحاسب الآلى العملاقة فى عدة وزارات، للتحقق من تكرارية النقوش، وتفنيد الاحتمالات المختلفة ومقارنتها ..

وحول (رشيد) استحال الليل نهارًا، حيث سلطت الكشافات العملاقـــة .. وشرعت البلـدوزرات تهدر كديناصورات أسطورية تلتهم التراب بحثًا عن حجر صغير يحوى سر الحضارة .

كانت اللغة الهيروغليفية تولد من جديد، وبسرعة غير عادية .. إن البحث عن طلاسم لغة فى عهد الكمبيوتر، يختلف - قطعًا - عن ذلك المجهود المحموم، الذى بذله (شامبليون) وحيدًا على ضوء شمعة .

كانوا يحتاجون إلى طرف خيط ..

وقد قدمنا لهم عدة خيوط، كلها تقود إلى نفس الشىء ..

* * *

فى الأيام التالية تكررت جلسات (الاعتصار الذهنى) إذا صح هذا التعبير ... وكان هؤلاء السادة يخصصون يومًا لكل موضوع .. قصة الهرم .. إخناتون .. كليوباترا .. حتشبسوت .. إياح حتب .. حور محب .. إلخ ..

وعرفنا انهم ـ بعد كل استجواب ـ كانوا يشرعون فى دراسة كل حرف ثم يرسلون فريقًا من علماء الآثار للبحث عن أى نقش يؤيد ما قلناه ويحاولون فهم كل كلمة فى هذا النقش على ضوء كلامنا ..

ثم جاء اليوم السعيد ..

اليوم الذى سمحوا لصحفى أن يقابلنا فيه ..

كان شابًا ناحلاً تلتمع عيناه حماسة، وجبينه مندى بالعرق، ويداه ترتعشان وهو يسألنا عن كل شىء .. بالطبع لم أصارحه بقصة (ناقل الجزيئات)، وحاولت إعطاءه الانطباع بأننا عرافان أو ساحران، أو أى شىء من هذا القبيل ..

بعد هذا بدأت الأحاديث الصحفية لى تتوالى ... لم أعد أذكركم صحفيًا أصلع الرأس، وكم صحفية تصبغ شعرها وتلوك اللبان قد قابلت .. لكنى كنت فى كل مرة أحكى شيئًا جديدًا ..

وكان موضعنا فى أية جريدة أو مجلة مضمونًا، فى أية مرة تفتح فيها فمنا .. وغدت صورتى أنا و (سلمى) مألوفة لرجل الشارع .. لكن أحدًا لم يلحظ تشابهنا غير العادى ..

صار اسم (رمسيس) و (خوفو) يترددان فى وسائل الإعلام، وعلى المقاهى، وعرف الناس (إخناتون) داعية التوحيد .. و (سنوحى) الفلاح الفصيح ..

★ ★ ★

على أن أكثر القصص التى أثارت شغف الناس، كانت هى قصة (كليوباترا ومارك أنطونى) .. وبرغم أن المؤرخين اليونانيين حكوها، وبرغم أن (كليوباترا) لم تكن فرعونية تمامًا، فإن التفاصيل لم تكن واضحة كما حكيناها نحن ..

وسمعنا عن مسرحية بنفس الاسم، تقدمها مسارح (لندن)، ألفها شاب انجليزى واعد اسمه (وليام شكسبير) !.. بالطبع استوحى الفكرة منا، لكنه لم يستأذننا .. اقترحت (سلمى) أن أقاضيه، لكنى ـ وقد تذكرت ماضىّ المشين ـ رأيت أنه من العدل أن أترك سارق القصص هذا وشأنه، كنوع من التكفير عن سرقاتى السابقة ..



وغدت صورتى أنا و (سلمى) مألوفة لرجل الشارع .. لكن أحدًا لم يلحظ تشابهنا غير العادى ..

ذات يوم جاء للفندق شاب وسيم تبدو فى ملامحه سمة أرستقراطية لا تخطئها العين ... وقدم لنا نفسه باسم أحمد شوقى .. شاعر ! ثم إنه طلب منى الإذن فى السماح له بكتابة مسرحية شعرية، يكون اسمها (مصرع كليوباترا) !!..

- إن هذا من حقك .. أنا لم أخترع القصة، والتاريخ ملك للجميع .. قلتها فى تواضع، وأنا أقاوم رغبة جنونية فى الصراخ فرحًا .. فى هذا العالم سيكون لى الفضل فى إلهام (أحمد شوقى) بفكرة مسرحيته الرائعة، ويا لها من مصادفة !!..

- وماذا ستقول فيها ؟

فرك كفيه فى حيرة .. وهزّ رأسه :

- لا أدرى فى الواقع .. لم أجلس لأكتبها بعد ..

هرشت رأسى فى تؤدة كأنى أفكر .. ثم قلت :

- ابدأها بالبيت التالى ..

قيامًا نشرب الخمرا على نخب كليوباترا

كرّر هو البيت ورائى، محاولاً حفظه .. ثم مط شفته السفلى فى اشمئزاز .. وغمغم :

- ليس سيئًا .. لكن يمكننى كتابة ما هو أفضل !!

قلت مقاومًا ضحكة خبيثة توشك أن تفلت منى :

- على كل حال. هذا مجرد اقتراح ... يمكنك - بعد إنهاء هذه المسرحية - أن تجرب كتابة مسرحية عن ... عن ... عن (قيس وليلى) أو (قمبيز) ملك الفرس ..

بدت نظرة عدم فهم على وجهه .. فقلت على الفور :

- هذا - بالطبع - لو كنت تعرف هؤلاء ..!

كيف لو عرف أننى أحفظ كل هذه المسرحيات عن ظهر قلب، قبل أن يخط هو حرفًا واحدًا فيها ؟!

وانصرف الشاب شاكرًا لى عطفى، دنت منى (سلمى)، وجلست أمامى حائرة .. وبعد هنيهة همست :

- (سالم) .. إن ضميرى ليس مستريحًا تمامًا .

- ولمه ؟

- هذا الذى نفعله .. أعتقد أنه ليس أخلاقيًا تمامًا .. ثمة نوع ما من الخداع فى كل هذا .. خداع لا أستطيع تعريفه بدقة ..

ثم مررت يدها عبر خصلات شعرها .. وهمست :

- قل لى إنه لا غبار على هذا كله .

نظرت لها فى ثقة .. وابتسمت بزاوية فمى اليسرى :

- لا غبار يا ملاكى .. لا غبار .. فقط ثقى بى ..

* * *

هكذا ظلت أيامنا تمضى على هذه الوتيرة .. رسالة من المخرج الأمريكى (جوزف مانكوفتش) يطلب منى أن أعمل مستشارًا فى فيلمه الضخم (كليوباترا)، الذى ستقوم ببطولته ممثلة اسمها (جلوريا سميث) .. وافقت على شرط أن تقوم بالدور (اليزابث تايلور) - لو كانت عندهم واحدة - لأنها ستؤدى الدور بشكل أفضل !! شعراء يطلبون الإذن فى نشر قصائد عن (كليوباترا) و (الكرنك)، وملحنون شبان يطلبون تلحينها .. وكتّاب سيناريو يطلبون كتابة سيناريو عن (إخناتون) ..

الجديد، اننى كنت أقدم قوالب جاهزة لكل هؤلاء كى يستعملوها .. حتى أن الملحن الشاب الذى عرفت أن اسمه (محمد عبد الوهاب) انبهر بشدة بالنداء المنبهر الملهوف (كليوباترا) الذى تبدأ به الأغنية التى تحمل هذا الاسم .. قال إننى عبقرى فهززت رأسى فى تواضع ..

واقترحت على مخرج مثقف، اسمه (شادى عبد السلام)، أن يقدم فيلمًا عن قبيلة تعيش من سرقة المومياوات .. سألنى فى شرود عن الاسم الذى يطلقه على الفيلم ففكرت حينًا، ثم قلت :

- لا يوجد سوى اسم واحد يناسبه .. سمه (المومياء)..!!

- اسم رائع ..!.. أنت موهوب حقًا ..!

هكذا - ترون - كنت منهمكًا لأذنىَ وسط كل هذا .. وتحولت قاعة الاستقبال فى الفندق إلى سيرك يضمّ مئات الشعراء والملحنين والرسامين والمخرجين وكتّاب القصة .. وكلهم جاءوا من أجلى ..

وتدريجيًا بدأت علاقتى تفتر بـ (سلمى) .. لم أعد أتذكرها إلا وقت النوم، حين تجلس على الفراش ترمقنى فى صمت بضع دقائق قبلما تكرّر سؤالها الخالد :

- (سالم) .. هل ضميرك مستريح ؟

فأقول وأنا أندس لاهثًا تحت الأغطية :

- جدًا ..!

لقد بدأ حسابى فى المصرف يتضخم - أخيرًا - أنا الذى لاأعرف مكان أى مصرف فى عالمى .. صحيح أنه حساب بعملة هذا الكوكب الغريبة، لكنه مال على كل حال، ويمكن - إذا أردنا الرحيل - أن نشترى به ذهبًا أو فضة أو يورانيوم (٢٧٣)، أو أية مادة يمكن استعمالها فى الكواكب الأخرى ..

- وماذا لو ذهبنا لأرض أخرى لاتعرف الذهب ؟..

هكذا تقول (سلمى) متشائمة .. فأنظر لها فى حنق وأقول :

إذن نتركها على الفور إلى كوكب آخر .. إن الكوكب الذى لايعرف الذهب، هو كوكب لايستحقنا !!

فتنظر لى فى حنان .. وتهمس :

- (سالم) .. متى نرحل ؟..

- حين .. حين ننتهى ..

- ومتى ننتهى ؟

- حين يعرفون ما نعرف ..

* * *

كانوا قد بدأوا ينقبون فى وادى الملوك، واجدين المومياء تلو المومياء لملوك الفراعنة العظام ..، وبفضل توجيهاتى، استطاع العلماء المصريون أن يجدوا مومياء (توت عنخ آمون)، منتزعين ذلك النصر من (لورد كارنافون) و (هوارد كارتر) صاحبى الكشف فى عالمى ..

وتدريجيًا تراكمت الآثار .. حتى صارت حاجتهم ملحة لبناء ذلك المبنى الشامخ الأنيق، فى ميدان (التحرير) : المتحف المصرى ..، وبدأت السياحة تنتعش .. والأسماء الفرعونية العزيزة تحتل مكان الأسماء اليونانية السخيفة .. وتاريخ (مصر) القديمة يتشكل ..

إننى عراف هذا العالم .. ولن ينتزع منى أحد ذلك المنصب ..

ولكن ..

ألا ترى معى شيئًا ما يثير الريبة فى كل هذا النجاح ؟!..

بلى ؟.. وأنا كذلك أوافقك ..

ثمة نذير شؤم يخيم على المناخ المزدهر .. إن الأمور لاتسير أبدًا بهذه البساطة والسلاسة ..

ثمة كارثة تنتظرنا .. لاجدال فى هذا ..

ولكن أين ؟.. وكيف ؟.. وهل سننجو منها ؟..

هذا ما ستعرفه بعد لحظات ..

* * *

٩ ـ الجانب المظلم من القمر ..

كنت عائدًا إلى الفندق منهكًا، بعد يوم حافل، حين استوقفنى موظف استقبال الفندق (وهو بالمناسبة أبله تمامًا)، ليقول لى بابتسامة مشرقة :

ـ المدام ليست موجودة ..

ـ حقًا ؟..

ـ لقد غادرت منذ ساعة مع رجلين ضخمى الجثة !.. وقد خيل لى للحظة أن أحدهما يحمل مسدسًا مصوبًا نحوها، ويخفيه تحت معطفه، إلا أننى استبعدت هذا الاحتمال .. خاصة وأن المدام أخذت تختلس لى النظرات، وتأتى بحركات لا أفهمها بوجهها .. و...

قبل أن يكمل عبارته، كنت قد وثبت فوق (الكاونتر)، ممسكًا بياقة بذلته الحريرية .. والزبد يتساقط من فمى :

ـ ماذا قلت ؟!..

أعاد لى سرد القصة فى ارتباك، والرعب يتملكه .. يا لك من معتوه !..

لقد اختطفت زوجتى أمام عينيك .. وأنت لم تفهم حتى محاولتها لإخبارك أن هناك شيئا على غير ما يُرام ...، ولكن كيف ؟.. ومـن ؟.. ولمـاذا ؟.. هل تركت لك رسالة ما ؟

- نـ .. نعم .. قالت لك أن تقبع جوار التليفون ..

أطلقت سراحه ، وشرعت أثب السلالم ثلاثة ثلاثة قاصدا غرفتى .. ذهنى مضطرب كبكرة خيط لعبت بها قطة ...، ودخلت الحجرة فلم أر ما يثير الريبة .. كل شىء فى مكانه .. حتى جهاز (ناقل الجزيئات) فى موضعه تحت حشية الفراش ..

إن قرحتى تتحرك ، وآلامها تعتصرنى ..

جرس الهاتف يدق .. أجـفلت وهـرعت نحـوه كالملسوع .. سمعت صوتها العزيز عبر الأسلاك مُرهقًا خائفًا حييًا :

- (سالم) .. هذا أنا ...

- طبعًا .. طبعًا .. أين أنت ؟

سادت هنيهة من الصمت .. ثم عاد صوتها :

- لا أستطيع أن أقول .. إنهم شرسون يا (سالم)، ولا يعرفون المزاح ، وهم ينذرونك إذا لم ترضخ لأوامرهم أن ...

قلت فى نفاد صبر :

- نعم .. نعم .. كالعادة .. سيرسلون لى أذنيك فى طرد ..!

- لا .. لا .. أسوأ من ذلك ..

- سينتزعون أظفارك بالكماشة ؟..

- بل أسوأ .. فهم يتمتعون بحاسة الابتكار للأسف .

وبدأت الدموع تغزو صوتها .. وأردفت منهنهة :

- سيضعون رأسى فى كيس ملىء بالفئران !

- الأوغاد !.. طريقة التعذيب الفيتنامية العتيقة !..

وهنا سمعت صوت جلبة .. وفهمت أنهم انتزعوا منها السماعة .. ثم سمعت صوتًا فظًا يقول بلكنة أجنبية :

- والآن .. كفى مزاحًا .. نفذ أوامرنا وإلا ...

ثم وضع السماعة ، وساد الصمت !..

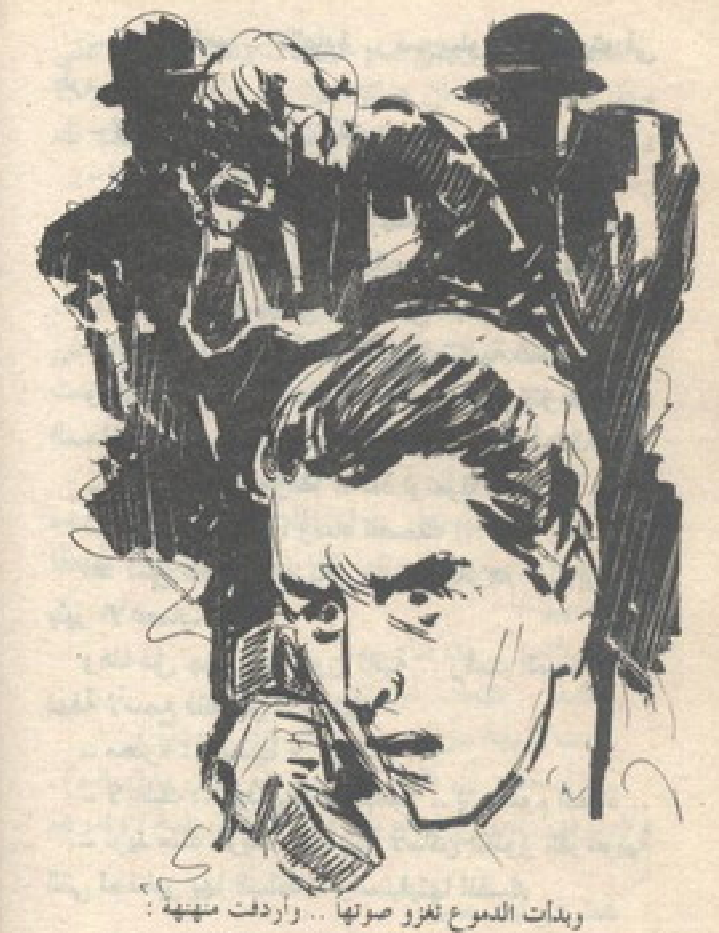
لقد نسى الحمقى أن يخبرونى بأوامرهم !!.. إن هذا يثير الأعصاب !..

وهنا دق جرس التليفون ثانية .. رفعت السماعة فى لهفة لأسمع ذلك الوغد يتكلم :

- معذرة !.. نسينا أن نوضح ..

- لا عليك .. فهذا يحدث للجميع .. إن هموم الحياة ..

- نريد منك خريطة تفصيلية لأماكن الكنوز الفرعونية التى لم تخبر بها السلطات واستبقيتها لنفسك .



وبدأت الدموع تغزو صوتها .. وأردفت منهنهة :

ـ سيضعون رأسى فى كيس ملىء بالفئران ! ..

ـ ومن قال إن عندى واحدة ..؟

ـ لأننا لسنا حمقى ..!.. انتظر مكالمة أخرى تحدد شروط اللقاء .. و.... كليك !

ساد الصمت مرة أخرى .. بعد ثوان عاد الجرس يدق فرفعت السماعة لأسمعه يقول فى حرج واضح :

ـ نسيت أن أحذرك ..

قلت فى نفاد صبر :

ـ طبعًا .. طبعًا .. ولا كلمة للبوليس، وإلا لن أرى زوجتى .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .. معذرة لشرود ذهنى ..

ـ لا عليك .. عمت مساءً .. لا تؤذوها من أجلى ..

ووضعت السماعة شارد الذهن أنا الآخر .. يا لها من كارثة !

★ ★ ★

كانت أوجاع القرحة تمزقنى، لكنى لم أستطع أن أفعل شيئًا آخر، سوى أن أجلس وحيدًا فى غرفتى، أرشف فناجين القهوة، وأرمق [illegible] الهاتف فى تشاؤم ..

يا لهم من حمقى ..!.. لقد ظنوا أننا نعرف عن كنوز الفراعنة أكثر [illegible] كشفنا عنه .. وظنوا أنهم بالسيطرة علينا، [illegible] مفاتيح خزائن (قارون) .. لكنْ جعلهم يفهمون سيكون عسيرًا بعض الشىء ..

والآن ليس لدى سوى أن أنتظر أو أبلغ الشرطة ..

الحل الأول كفيل بإصابتى بالجنون .. أما الحل الثانى فلن يزيد على محاولة تتبع خطوط الهاتف الأمر الذى لن ينقذنى من الجنون أيضًا .. ولكن .. ثمة شىء غريب ..

أشعر بالخوف لا القلق .. هناك فارق كبير بين الخوف والقلق ؛ وفى حالتى هذه المفروض أن يقتلنى القلق .. فماذا يخيفنى ؟!

أشعر بالجوع برغم أننى تناولت عشائى ..

وأشعر بالبرد برغم أن الغرفة دافئة ..

إن تفسير هذا ليس عسيرًا .. هذه ليست مشاعرى ، بل هى مشاعر ذاتى الثانية - (سلمى) - فى سجنها البعيد !..

لقد ألفت هذا الخلط ولم يعد يدهشنى .. لكنه - فى هذه المرة - سيكون مفتاحى للبحث عنها ..

إنها كروموسوماتى .. وإننى لابد واجدها بشىء من الجهد لو تركت العنان لغرائزى .. إن كروموسوماتى النائمة فى خلايا جسدى ، لقادرة على إيجاد كروموسوماتى النائمة فى خلايا (سلمى) ..

وسأفعل هذا وحدى دونما عون ..

* * *

الأمر عسير ..

شرعت أردد هذا لنفسى ، وأنا أركب سيارتى الجديدة التى لم أحصل على رخصة قيادتها بعد ؛ وأجوب شوارع المدينة ، مستسلمًا لشعور غامض ، لا أعرف إلى أى حد هو صائب وإلى أى حد هو مزيف ..

المشكلة - قلت لنفسى - أن ما يربط بينى و (سلمى) ليس نوعًا من التخاطر (التليباثى) وإلا لغدا العثور عليها سهلًا .. إنه نوع غريب من الانتماء ، كالذى يجذب الساق المبتورة نحو صاحبها ، إذا كان هناك حقًا شىء كهذا ..!!

مشكلة الحضارة ، هى أنها أتلفت - للأبد - غرائزنا البدائية .. وإن أى قط يحترم نفسه كان - حتمًا - سيجد زوجته ، بعد ربع ساعة من اختفائها ، لو كان فى مكانى .. لكننى لست قطًا للأسف !!

كنت أحمل معى جهاز (ناقل الجزيئات) والحنين والقلق يمزقاننى ، حين وجدت شيئًا يدفعنى إلى السير فى تلك الشارع الجانبى ..

* * *

كلا .. لايمكن أن تكون هذه المدرسة هى وجهتى ..

مدرسة ابتدائية تصدع مبناها لايمكن أن تكون هى ضالتى ..

كان الأطفال يملئون الشارع، فى انتظار لحظة أن يفتح الباب الحديدى الصدئ، ليتراصوا فى طابور الصباح .. ليلة كاملة انقضت علىّ فى السيارة، غارقًا فى حيرتى .. والآن المفروض أننى وصلت ..

كان هو الذى تعرف علىّ أوّلا .. وجهه الشيطانى الأبله، ومريولته الزرقاء، والابتسامة الخبيثة بركن فمه الأيسر .. شريف !.. نسختنا الكروموسومية، التى نسينا عنها كل شىء .. يا للعنة !.. إذن فكروموسومات هذا المعتوه هى التى قادتنا إلى هنا .. وكنت أقتفى أثرًا مضللا طيلة الوقت .

- أونكل !.. مرحبًا !.. رأيتك فى التلفاز البارحة !!

فتحت باب السيارة، ونزلت منها .. وانحنيت على ركبتىّ جواره .. وشرعت أفكر .. إننى أمقت هذا الطفل السخيف، لكنه قد يكون ذا عون لى .. أوّلا سيساعدنى مجيئه معى، على التخلص من جاذبية كروموسوماته المضللة .. ثانيًا لو وحّدنا غريزتينا أنا وهو، فلربما استطاعت روحه البريئة الشفافة - لو كان يملك واحدة - أن تساعدنى على إيجاد كروموسومات (سلمى) ..

نظرت فى عينيه .. وقلت :

- شريف .. أنت تذكرنى و (سلمى) طبعًا ؟

- طبعًا .

- وتشعر أنك تنتمى لنا .. هل تفهم معنى (تنتمى) ؟

- لا ..!

- أعنى .. تشعر أننا منك وأنك منا ؟

- لا ..!..

- يا لك من حمار ..!..

وهرشت رأسى مفكرًا .. كيف أوصل له فكرتى ؟..

قلت :

- حسن .. أنت شعرت بمقدمى يا (شريف) قبل أن ترانى .. أليس كذلك ؟

هزّ رأسه أن بلى ..

- ثمة شىء ما يربط بينى وبينك وبين (طانط سلمى) .. هل تذكرها ؟

مرة أخرى هزّ رأسه أن نعم ..

فكرت فى خطورة باحثًا عن الأسلوب الأمثل، لإقناع هذا الشيطان الصغير :

- قد خطفها اللصوص .. وسيقتلونها، وأنا بحاجة لمخبر عظيم مثلك يجدها لى .. فهلا ركبت معى ..؟

بدا عليه الحماس .. ففتحت له باب السيارة .. وأركبته جوارى، ثم أدرت المحرك، حين سمعت صيحة من سيدة صارمة الوجه، تبدو كإحدى المربيات الفضليات، وهى تشق زحام الأطفال لتلحق بنا :

ـ أنت يا أستاذ !.. إلى أين تظن أنك تأخـذ هذا الصبى ؟!..

ـ معذرة يا سيدتى، فلا وقت عندى للشرح .. وانطلقت بالسيارة .. وفى المرآة الجانبية لمحتها تدون رقم سيارتى، فى وريقة أخرجتها من حقيبتها .. لا ألومها، فقد قامت بواجبها على أكمل وجه، على أننى أتحمل الآن ـ بجانب كل أعبائى ـ عبء أن أثبت للشرطة أننى لم أختطف الطفل ..!

ـ إنها أبله (اعتماد) .. الناظرة !

قالها لى مفسرًا .. وضحك فى بلاهة .. فزمجرت من بين أسنانى :

ـ هذا واضح .. وأكون شاكرًا لو أغلقت فمك يا أخ (شريف) !

★ ★ ★

هل تشعر بها ؟..هل تشعر بها ؟..

من عالمها البعيد جاءت وغدت لى .. تعرف أسرارى وأحلامى وتتجاوز عن سخافاتى ونقاط ضعفى .. إنها بريئة رقيقة .. فهل تشعر بها ؟..

أمسك بالمقود بيدى اليسرى، وأضغط كف الطفل الصغيرة بيدى اليمنى .. حاول أن تدوب فى خلايا كفى .. حاول أن تتوحد معى وتفكر مثلى .. إننا حتمًا واجداها .. فقط ساعدنى ..

ـ هل نتجه يمينًا أو يسارًا ؟.. فكر أيها الطـفل السخيف .. فكر ..!

فيضع إصبعه فى فمه بحيرة .. ويهمس :

ـ لا أدرى ..

أضغط على أسنانى وأصيح بوحشية :

ـ بل أنت تدرى !.. فقط فكر ..!.. اشعر..!

فتلتمع الدموع فى عينيه .. ويسيل المخاط من أنفه .. ويهمس :

ـ يـ .. يسارًا ..

فأدير مقود السيارة إلى اليسار، وأضغط دواسة البنزين .. يجب أن أرفق بهذا البائس الصغير .. إن الخوف يعتصر قلبى، ومعنى هذا أنه خائف !.. إننى أمقت نفسى، ومعنى هذا أنه يمقتنى .. لاريب أننى أبدو له وكأننى قد اختطفته .. لكنى لا أملك السعة النفسية التى تسمح لى بأن أكون حنونًا حتى مع نفسى !..

وهكذا شرعنا نتحسس دربنا عبر شوارع القاهرة .. إننا نتجه نحو (حلوان) .. ويا لها من رحلة مضنية .. يمينا .. يسارًا .. يمينًا .. هنا .. لا .. لا .. هناك .. بل هنا .. لاتقلق ..

والآن ها نحن أولاء نرمق ذلك البيت المنعزل، عند أطراف المدينة، حيث حملتنا غريزتانا .. إن الاحساس الغامض يتملكنى .. (سلمى) هنا ..!.. لاريب فى ذلك ..، نظرت لوجه الطفل فلمحت أنفاسه المبهورة تتلاحق من منخريه .. والحمرة تغزو خديه .. وهو لايجد ما يفسر به ذلك الشعور العجيب ..

قلت له مبللًا بلسانى شفتى السفلى :

ـ إنه هو .. هل تشعر به ؟

هز رأسه فى انبهار .. وشرع يرمق البيت ..، إنه إحساس لايوصف، ولايمكننى أن أقربه لك، وإلا لغدوت (شكسبير) هذا العصر ..، لو أنك تفهم ما تشعر به تفاحة نحو تفاحة أخرى، على نفس غصن الشجرة ؛ لو أمكنك هذا لأرحتنى من عناء الوصف !..

أدرت مقود السيارة متجهًا إلى أقرب قسم شرطة ..، وأنزلت الصبى على مسافة معقولة .. ثم أصدرت له تعليماتى :

ـ ستدخل هناك، وتخبرهم أنك قد ضللت الطريق .. وتطلعهم على اسمك وعنوانك ... لاتذكر حرفًا عنى أو عن هذا البيت ...، إنك قد قدمت لى عونًا لن أنساه ...، يمكنك أن تثرثر كما تشاء حين تعود لدارك ..

قال فى حيرة :

ـ واللصوص ؟.. هل ستحاربهم وحدك ؟

ابتلعت ريقى .. وداعبت بأناملى شعر رأسه الخشن :

ـ سأحاول يا صغيرى .. أعدك أننى سأحاول !!

* * *

١٠ - الهرب من جديد ..

فكرة ملائمة .. فكرة ملائمة !..

إنه قدرى أن أقضى حياتى، عاصرًا خلايا ذهنى المنهكة، باحثًا عن فكرة .. إن مشكلتى الحالية ليست عسيرة .. بل هى - إلى حدٍّ ما - مستحيلة .. ها هو ذا البيت المكون من طابقين بجدرانه المتآكلة، التى تفوح منها رائحة القدم .. ثمة ماسورة مياه صدئة .. وبوابة حديدية مغلقة بقفل فظ، وجنزير كأنه مُنتزع من دبابة .. وداخل هذا المبنى .. زوجتى !..

والآن .. كيف أدخل ؟!..

كلا .. ليس ملائمًا أن أبلغ البوليس، لأن الأمر برمّته مجرد حدس .. ولست مولعًا برؤية ردّ فعلهم إذا ما تبين أننى معتوه ..

كلا .. ليس ملائمًا - أيضًا - أن أطرق الباب، لأننى لا أملك أية حيلة أبرر بها قدومى .. ولا أملك أية فكرة عن الوضع بالداخل .. أتسلق المواسير ؟.. لا تكن سخيفًا .. أنا لست لصًا محترفًا، ولست - بالطبع - قردًا .. لن تستفيد (سامى) شيئًا من تهشم جمجمتى ..

فكرة ملائمة .. فكرة ملائمة !

كل ما أحتاج إليه هو جزء من الثانية .. إصبع من أصابعها .. ألمسه وأضغط أى رقم على (ناقل الجزيئات)، من ثم نفرّ نهائيًا بعيدًا عن هذا العالم المشئوم .. لا أريد ما جمعت من مال .. لا أريد شيئًا .. أريد صغيرتى البائسة، التى لم أشعر بمعناها فى عالمى، إلا بعد أن فقدتها أو كدت ..، فقط أعطونى فرصة لأهرب معها ..

بعيدًا .. بعيدًا ..

* * *

- هل تريد شيئًا..؟!

كان هذا هو السؤال الذى حسم الموقف نهائيًا ..، إذ بينما أنا شارد فى خواطرى الجنونية، شعرت بتلك الكف الباردة كالثلج الغليظة كالصخر تهبط على قفاى ..

التفت فى هلع، لأرى أسوأ كوابيسى، وقد غدا واقعًا ..، إنه رجل ضخم الجثة شرس المحيا، يقف خلفى ويرمقنى فى شك ..

إذن صدق حدسى .. لابد أن هذا هو مقر العصابة .. وهذا الوحش هو من كلفوه بحراسة البيت .. كيف فاتنى ذلك ؟

حاولت أن أقول شيئًا .. أن أفسر .. لكن كلامى جاء - بالطبع - مجرد دمدمة بلهاء لاتفسر شيئًا ... من الواضح تمامًا أن هذا الوغد مسلّح ..

وحتى دون سلاح، ستلعب عضلاته دورًا حاسمًا فى أى صراع محتمل ..

- قلت ماذا تفعل ؟

- مـ .. مـ .. بـ .. فـ .. لـ .. ص .. ش .. هـ .. مـ .. !

- إذن تعال معى ..!

ودون مناقشة جرّنى جرًا، وأولج مفتاحًا فى قفل الباب الغليظ، وهو يسبّ ويلعن ... ووجدت نفسى أصعد فى درجات رطبة شيطانية الرائحة، وثمة قط أجرب يرمقنى فى دهشة ..

وعند الطابق الأول مدّ يده وفتح بابًا .. دخلت خلفه إلى صالة أنيقة نسبيًا، تنم عن ذوق لا بأس به فى الأثاث ... وعلى مقاعد (أنتريه) حديث الطراز كان هناك بعض الرجال جالسين يدخنون، وقد بدا عليهم الارتباك حين رأونى .. ورمقوا حارسى فى تساؤل ..

قال الرجل مفسرًا وهو يطلق سراحى :

- كان يتسكع بالجوار .. ولم يعطنى تفسيرًا مقنعًا ..

كان الرجال يملكون عدة وجوه، لا أجد ما يدعونى لوصفها إلا إذا كنت تحب الثرثرة على غرار : رجل فى منتصف العمر نصف أصلع ضخم الجثة وله شارب !.. كانوا رجالًا وكفى ..!، فقط أحدهم بدا لى أجنبيًا إلى حدّ ما، وقوى الشخصية، مما يوحى بالزعامة ..

وهنا .. وهنا حدث ما أخشاه ..

ضاقت عيونهم فجأة شأن من يتذكر شيئًا ما .. ثم بدت عليهم علامات الفهم ..

وصاح أحدهم فى لهجة (أرشميديسية) بحتة :

- لكنه ... إنه ...

فساعده الآخر على التذكر :

- نعم .. هو .. زوجها ..!.. لقد جاء بنفسه !..

- وكيف استطاع أن ..؟

- أليس هو عرّاف العصر ؟!

وساد المكان جو من التحفز .. تصلبوا وقوفًا والتفوا من حولى ..

قلت فى حنق، وأنا أشعر أن الأمر كله قد غدا سخيفًا :

- أين زوجى ؟

أشار الأجنبى إشارة ذات معنى إلى حارسى .. ثم تأملنى بعينين زرقاوين لاتطرفان ... وقال نافثًا دخان سيجاره فى وجهى :

- إنها بخير .. بخير يا سيدى .

إنها تلك العربية ذات اللكنة الأجنبية التى سمعتها فى الهاتف ..

- أقدم لك نفسى .. (هنريكه شولتزمان) .. لص آثار محترف ...

- وشارد الذهن كذلك .....

ابتسم فى شىء من الخجل ... وأشار إلى .. إلى (سلمى) التى جاءت مع حارسها من مكان لا أعرفه .. كانت فى حال طيبة .. وقد بدا عليها الذهول حين رأتنى ، ثم تبدلت نظرتها إلى ابتسامة بزاوية فمها اليسرى .. فخر الأنوثة والاطمئنان ، و ... الحنين ...... كانت واثقة من أننى سأجدها ..

قال الرجل فى مودة :

- ها أنتذا ترى أننا لسنا بهذه الشراسة ... وحالتها أفضل بمراحل من حالتك .. لكم تبدو مشوشًا ..!..

ثم أشار لها كى تجلس .. وعاد يرمقنى فى ثبات :

- وحدك ؟...

لم أدر كيف أجيب .. هل من الحكمة أن أتظاهر بأننى لست وحيدًا؟

أم أن هذا سيدفعهم لتصرف أحمق متعجل ؟! على أنه وفر علىّ عبء الإجابة ... إذ افترض مسبقًا أننى لست وحدى ..

فى رزانة مد يده إلى جيبى وشرع يعبث هنا وهناك .. ثم أخرجها ممسكة بـ .. جهاز (ناقل الجزيئات) ..

هتف أحد الواقفين فى جزع :

- هذا جهاز (تتبع) خاص بالشرطة !.. إنهم خلفه ..!

يا لك من أحمق ..!.. كنت أبدأ فى الصراخ مقسمًا لهم إنه ليس كما يظنون .. إلا أن الهر (شولتزمان) أخذ يتأمل الجهاز فى خبرة بضع ثوان ... ثم هز رأسه :

- لا أعتقد يا (حلمى) .. لقد رأيت العديد من هذه الأجهزة ، ولا أحسبه واحدًا منها ... إنه أقرب للآلة الحاسبة .

تنهدت الصعداء .. لقد نجونا .!.. وهنا سمعته يواصل الكلام مناولاً الجهاز لـ (حلمى) هذا :

- لكننا لن نترك شيئًا للظروف .. خذه .. وتأكد من تحطيمه ..!

* * *

مرة أخرى يا (سلمى) تبرهنين لى أنك الأكثر ذكاء وحكمة ... كيف كانت ستخطر لى فكرة مماثلة كالتى بادر عقلك إلى ارتجالها ؟..

ما إن أمسك المدعو (حلمى) بالجهاز ، قاصدًا المكان الذى يحطمون فيه الأجهزة - إن كان عندهم واحد - حتى صرخت فى هستيريا واثبة من مقعدها :

ـ أيها السفاح ..!.. إنك تقتله !!

نظر لها الرجل فى بلاهة ـ وأنا كذلك ـ فبادرت مفسرة :

ـ إنه (منظم ضربات القلب) الخاص به .. ومن دونه يتوقف قلبه خلال ثوان !!.. انظر له !.. إنه يموت !!..

منظم ضربات قلب ؟.. فكرة لا بأس بها .. أعرف شيئًا كهذا، لأن عمًا لى كان يحمل جهازًا مماثلا، ومن دونه تختل الإيقاعية الكهربية لعضلة قلبه .. و ... المهم الآن أن أتظاهر بأننى أصبت بنوبة قلبية .. آمل ألا يكون بينهم طبيب أمراض قلب، أو لديهم رسام قلب كهربائى ..!

لم أحتج لكثير من الجهد، لأن توتر الموقف تكفل بجعل أطرافى باردة كالثلج .. ولعاب كثير سال من شدقى .. و .... سقطت على الأرض كصخرة تهوى من قمة جبل .. وسط عويل (سلمى) :

ـ أيها الأوغاد !.. زوجى !.. أعيدوا الجهاز !!..

تكفلت (سلمى) بلعب دورها ببراعة، أغرقتهم فى بحر من الدموع والصراخ الهستيرى واللكمات، حتى لم تترك لهم فرصة للتأكد مما إذا كان فى الأمر خدعة ... لقد أصابهم الذعر الهستيرى هم أيضًا ..

صاح الأجنبى فى هلع :

ـ حسن .. حسن .. أعيدوا له الجهاز .. كفى عن الصراخ يا امرأة !

وهكذا شعرت بيد تدس الجهاز فى جيبى ... وعلى الفور بدأت علامات التحسن التدريجى تبدو علىّ !!.. وفتحت عينىّ فى إنهاك .

ـ غريب هذا ..

قالها الأجنبى وهو يهرش رأسه :

ـ أنا واثق أن (منظم الضربات) لا يبدو كهذا .. لكنى على كل حال ـ متأكد من أنه ليس جهاز اقتفاء أثر ... على العموم سنخاطر .. إننى أريدك حيًا .. احتفظ بلعبتك هذه إذن .

انحنت (سلمى) فوقى وأخذت تجفف العرق البارد من على جبينى ..

همست لها وأنا ألهث :

ـ منظم ضربات ؟!.. يا لها من فكرة ..!

قالت فى حنق من بين أسنانها :

ـ لم أجد فكرة أفضل .. لماذا لم تنقذ أنت الموقف ..؟

جلس الهر (شولتزمان) على الأريكة جوارى .. وداعب بأنامله ركنى فمه كمن يفكر .. ثم قال بعد هنيهة :

- الآن يا هر (سالم) أعتقد أن تعاونك أمر مفروغ منه .. إن ذكاءك يسمح لك بتخيل ما سنفعله .. لن يتم أى نوع من الإيذاء لشخصك، بل لشخص يهمك أمره، ولن أذكر اسمه طبعًا ..!

قال أحد الجالسين فى شك :

- إننى أرجو أن يفسر لنا أولاً سر مجيئه .. قد تكون فى خطر داهم فى هذه اللحظات ..

ابتسم الهر (شولتزمان) فى ثقة، وبدأ يفسر وجهة نظره :

- لا أظن .. إن الشرطة لم تكن لتغامر بشخص شديد الأهمية مثله للبحث عن مقرنا .. على الأقل كانت سترسل مخبرًا لاستكشاف المكان، أو كانوا سيقنعونه - كالعادة - بالانتظار حتى يعرف مكان الصفقة، ويتم تتبع مندوبنا ...، إن الأمر كله لا يزيد على مغامرة فردية يائسة ، قام بها الهر (سالم) مستعينًا بموهبته التى نجهل عنها كل شىء، وحاسبًا نفسه بطلاً من أبطال السينما .. مثل (هنرى جيمسون) ..

من هو هذا الـ (هنرى جيمسون) ؟.. أعتقد أنه معادل (جيمس بوند) على هذا الكوكب ..!، على أن الثعلب قد أجاد الاستنتاج حقًا .. كل ما أريده لحظة انفراد تتيح لى معالجة أرقام الجهاز .. لحظة واحدة .. ترى متى سيقومون بسجننا ؟..

قال الهر (شولتزمان) فى تؤدة :

- على كل حال .. لا أرى ما يمنع تغيير مقرنا بأقصى سرعة ..

- رأى صائب ..

وفى هذه اللحظة ..

دوى صوت ضربات عنيدة صارمة على الباب الحديدى للبيت ..

الباب المغلق .. لحظات من التوتر .. ثم هرع أحدهم يختلس نظرة بين خصاص النافذة الخشبية .. وهتف فى هلع :

- شرطيان !!..

* * *

- يا للكارثة !

واستدارت العيون نحوى ترمقنى فى اتهام ..

لابد أنه الطفل (شريف) .. لم يحفظ وعده لى .. وفى المخفر حدثهم عن اختطافه وعنى وأشياء مريبة كثيرة، جعلتهم يصممون على زيارة البيت الذى أخذته إليه، ليعرفوا ما هنالك .. بالطبع هم يؤمنون أن الطفل يهذى بخياله الواسع .. وبالطبع هم لم يعيروا الأمر أية جدية، لكن رد فعل هؤلاء الأوغاد لن يكون سهلاً ..


وبالفعل تناول الرجل حبلاً ليفيًا مُلقى على الأرض .. وأشار لـ (سلمى) تجاهي ..

التمعت عينا الأجنبي في وحشية .. وهتف :

ـ كان حدسي خاطئًا يا هر (سالم) .. لكن دعني أؤكد لك أن أوان المزاح قد انتهى .. أية محاولة لتحذيرهم ستكون وبالًا عليكما ..

وأشار إلى الرجل قوي البنيان، الذي ألقى القبض عليّ .. وأمره :

ـ أخفهما في البدروم .. ثم افتح الباب وتظاهر بالبراءة .

أخرج الرجل مسدسًا قبيح الشكل فوهته أطول من اللازم مما جعلني أدرك أنه مزود بكاتم صوت ... وفي احتراف أشار لنا كي نتقدمه إلى باب خلفي ..

باب يقود إلى درجات محطمة، تقود بدورها إلى قبو عفن ...

كانت (سلمى) ترتجف رعبًا .. أما أنا فكنت أتحرق شوقًا إلى اللحظة التي يتركنا فيها هذا الثور وحيدين، كي تتلامس يدانا .. ونضغط زر الجهاز الحبيب ..

كان قبوًا كأي قبو آخر، لايميزه سوى عمودين خشبيين لايصلحان سوى لشيء واحد ... وبالفعل تناول الرجل حبلًا ليفيًا مُلقى على الأرض .. وأشار لـ(سلمى) تجاهي .. وهتف :

ـ هيا ..... قيديه سريعًا ثم قفي لأقيدك !!

* * *

كلا ..!.. إن الهرب يحتاج لأن تكون يداى حرّتين ..

دون أية كلمات مددت يدى لجيبى مخرجًا الجهاز وقذفته إلى (سلمى) .. ثم استدرت نحو الرجل .. سأراهن على شىء واحد .. أنه لن يطلق علينا الرصاص دون تعليمات عليًا من رئيسه ..

وهكذا ألقيت بجسدى على المسدس ووجهت فوهته بعيدًا ..

يا لقوة الرجل الكاسحة !.. كأنني أصارع جرّارًا .. الشرايين توشك أن تنفجر فى فودىّ .. لكنى سأصمد ..

الطرقات تزداد شراسة وعنفًا على الباب الحديدى الصدئ ..

ـ (سلمى) !.. مـ .. ماذا تنتظرين ؟..

صفعة شرسة على خدى .. لكمة مروعة مزقت شفتى .. مذاق الدم الصدئ .. فى الواقع كنت عمليًا أتدلى من المسدس بينما الثور يطوّح بى فى هواء البدروم، ويوجه لى ضربات غير آدمية .. تلاشى عقلى تمامًا مستشعرًا أننى خفاش متعلق فى ساق دابة ..

على كل حال هو لم يطلق رصاصة واحدة، مما يدلنى على أنه فى حيرة من أمره .. ولم تكن قوته الكاسحة لتدع له حاجة لأن يطلق ..

ـ (سلمى) !.. أيتها الحمقاء..!!

الطرقات تزداد شراسة .. وعيى يتسرب منى .. أنشب أسنانى فى كفه فيسب ويوجه لى المزيد من اللكمات ..

ـ (سلمى) ..!..

ـ اتركه يا (سالم) !.. اتركه وإلا أخذناه معنا !!..

اتركه ؟.. يا لها من كارثة !.. إن تركه أعقد من التشبث به !.. و ... لكمة عارمة وجهها لى كانت هى فرصتى .. فتركتها تقذفنى إلى الحائط، لأسقط جوار (سلمى) .. (سلمى) التى واصلت ضغط أزرار الجهاز فى برود كأن ما يحدث لا يعنيها .. ثم فى صرامة أمسكت يدى .. وهتفت بين أسنانها :

ـ هيًا ..!

وضغطت زرّ الإدخال ..

فلم يحدث شىء ..!!

* * *

١١ ـ الخاتمة ..

يا للكارثة !..

لم يحدث شيء !..

بينما ذلك الثور يتقدم نحونا، وعلى وجهه نظرة لا داعي لوصفها ..

ـ (سلمى) !.. ماذا حدث ؟

ـ لا أعرف .. ربما هي البطاريات ..

في هذه المرة يرفع الثور مسدسه نحونا .. وينفرج ثغره عن ضحكة ذئب ..

ـ (سلمى) !.. افعلي شيئًا ..!

ـ صبرًا .. ربما لو أعدت ترتيب الـ... نعم .. هكذا .

الثور يتقدم .. أقسم أنني أرى الزبد يسيل من شدقيه ..

ـ (سلمى) !..

ـ حسن ..!.. امسك يدي .. هيًا ..!

و ....

اختفى القبو من حولنا ..

* * *

أخيرًا ...

ها نحن أولاء ذائبان في الزمان والمكان .. لكم قتلني الهلع .. ما شعوري لو رأيتك جواري محملقة العينين والدم ينز من ثقب في جبينك ؟!..

ـ يا لك من بشع !!..

يضايقني أننا لم نعاقب هؤلاء الأوغاد .. كلا .. لا تحسب أنهم نجوا .. فالشرطة ستجد عندهم أشياء مريبة عديدة .. حقيبتي .. فردة من حذائك، وبقعًا من دمك في القبو .. ثم هم لابد يخفون أشياء أخرى لا يسرهم أن يجدها رجال الشرطة ..

ـ دعينا ننس كل هذا ..

دعينا نستمتع برحلتنا هذه عبر المجرات ..

ـ أنت نسيت كل شيء عني .. أهملتني تمامًا حين وجدت النجاح ..

ـ لقد كنت أحمق .. هذا هو كل شيء .

ـ هل ترى هذه المجرة ؟.. إنها وطننا الجديد .. الكوكب رقم .. رقم .. لقد نسيت .. ضغطت الأرقام عشوائيًا ..

لا يهم .. يكفينا أننا معًا .. معًا ..

* * *

قرأ المدير الأوراق الأخيرة فانفرجت أساريره (أخيرًا) :

ـ لابأس يا (سالم) .. كنت أريد بعض (الضرب) .. بعض اللكمات والركلات من أجل شيء من الحيوية ... إن الفكرة لابأس بها، والآن أعتقد أنك ستستمر فى هذه السلسلة ..؟

ـ بالطبع يا سيدى .

ـ وما هى الحلقة التالية ؟

هرشت رأسى فى إرهاق .. ثم قلت :

ـ لم أفكر بعد يا سيدى .. أعطنى فرصة .

ضغط المدير على السيجار بأسنانه .. وغمغم :

ـ حسن .. لن أطبع هذه قبل أن تأتينى بعدة حلقات .. إن ما أريده هو الاستمرارية .. هذا ما يجب أن أتأكد منه ..

ونظر فى عينىّ بثبات مؤكدًا كلماته :

ـ الاسـ..ـتـ..ـمـ..ـر..ـا..ـر..ـيـ..ـة..!

★ ★ ★

أعدت لى (سلمى) قدحًا من القهوة، وجلست جوارى تداعب قطتنا الصغيرة، وابتسمت بزاوية فمها اليسرى :

ـ ألا تخشى أن ينكشف الأمر ؟!..

رشفت رشفة من فنجان القهوة .. وقلت :

ـ أن يعرف المدير الحقيقة ؟.. أن قصتى الجديدة عن (سلمى) القادمة من عالم موازٍ هى حقيقة واقعة ؟.. لا أظن يا ملاكى .. من الصعب أن يتخيل أحد ذلك ..!

ـ وماذا إذا عرف ما هو أسوأ ..؟

ـ أننا نحن معًا قادمان من أرض أخرى، إلى هذا العالم الموازى، باحثين عن النجاح عن طريق سرد مغامراتنا ؟.. لا أظن .. ولن يتخيل .. إنه يظن أن هذا الكوكب هو الأرض الأصلية، فى حين أن الأرض الأصلية بالنسبة لى هى الكوكب (١١٢ـبـ٧٥) .. وبالنسبة لك هى الكوكب (٤١٩ـأـ مجرة [تازما مالورى]) ..

ـ أى أن المدير نفسه يعيش فى كوكب من كواكب مغامراتنا ..!

ثم أمسكت رأسها .. وضحكت :

ـ سيصيبنى الدوار ..!.. أرجوك كفى !!..

ثم إنها أطلقت سراح القطة .. وتساءلت :

ـ ما هى قصتك التالية ؟!

وضعت فنجان القهوة ومسحت فمى :

ـ لتكن قصتنا مع ... مع المغول ..

ـ لكنها شنيعة .

ـ .. والمقبرة .. والمومياء المحترقة .. و ...

ـ هيه !.. لا تفسد القصة أرجوك .. اكتبها الآن ..!

وأنتم يا رفاق ..؟.. أريد أن أطمئن قبل أن أفارقكم .

هل ستلحقون بنا فى ..

أرض المغول ؟!!

★ ★ ★

١٢ ـ ما بعد الخاتمـة ..

مرحبًا يا رفاق ..!.. مضيفكم (رفعت إسماعيل) يعود إليكم بعد انتهاء هذه القصة العجيبة التى رواها لنا (سالم) ..

لن ألقى أحكامًا على عواهنها .. ولن أزعم أنه معتوه ـ برغم أن الإغراء شديد ـ ولن أدعى أنه نصاب ـ وما أمتع أن أقولها ـ بل سأكتفى بأن أحك رأسى الأصلع، وأغمغم أن كل هذا غريب .. غريب إلى حد لا يوصف ..

إن لغزًا من أكثر الألغاز غرابة يحيط بهذا الفتى الخجول، وزوجته اللطيفة التى تشبهه ـ بالمناسبة ـ إلى حد مريب !... ومهما كان رأيكم فى قصته هذه، فلا أخال أحدكم يجادلنى فى أنها كانت جديرة بأن أحكيها لكم ..

بصيص آخر يلتمع لعينى من عالم ما وراء الطبيعة .. عالم الألغاز التى سنموت ويموت أحفادنا قبل أن نراها، دعك من أن نجد لها تفسيرًا ..

والآن .. لقد انتهى دورى .. سأعود فى القصص القادمة إلى ذكرياتى الشنيعة، التى لا أجد أرق منها كى أحكيه للأسف !..، على أننى أعدكم أن أشارككم فى كل قصة جديدة، يحكيها لى هذا الزميل الغامض .

والآن أعود لعالمى الكئيب ..

كان هذا فى أوائل عام ١٩٦٧، حين تبدلت مفاهيمى وآرائى فى كثير من الأمور، إثر صدامى مع كائن لم أتوقع أبدًا أن له وجودًا، حتى فى أشد كوابيسى شناعة ..

لكن هذه قصة أخرى !

د . رفعت إسماعيل

القاهرة ـ ١٩٩٢

* * *

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة أرض أخرى

إنه حلم.. لكنك ستعيشه
كأنه واقع... أرض أخرى تشبه
أرضنا كثيرًا.. وتختلف عنها كثيرًا..
(أنت) آخر يشبهك كثيرًا.. ويختلف عنك
كثيرًا... دع له يدك كي يقودك
عبر دهاليز ذلك العالم العجيب..
إنه حلم.. ولكن هل نفيق
منه حقًا؟

المؤلف



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم: أسطورة لعنة الفرعون

الثمن في مصر

وما يعادله بالدولار الأمريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع